# شرح خمرية ابن الفارض
## رضي الله عنه

**شَرحُ خَمْرِيَةِ ابْنِ الْفَارِض**: الحمد لله الَّذي سَقى قلوب أَحِبائه، مِنْ مُدَامَة حُبِّهِ. فأَصبَحُوا من سكر محبَّته مُتَوَلِّهين. غَيَّبهُمْ عَنْ شُهودِ غَيْرِهِ بدَوَاع شُهُودِ سِرِّه فأَضْحوا في رِيَاضِ ملكُوتِهِ متنزّهينَ. جَذب أَرْواحهُم بحَضْرَةِ قُدْسِهِ. فَصَارُوا في خَلَواتِهِمْ بِهِ متأنسين وهيّأَ أَسْرَارَهُم لحملِ أَعْبَاءِ مَعْرفته. فخَاضُوا في بِحارِ جَبَرُوتِهِ بِسُفُنِ أَفكارهم سَابِحِينَ. والصَّلاة والسَّلامُ عَلى مَنِ امْتدَّتْ مِنْ سِرِّ نَاسُوتِهِ الأَكوان. وأَشرقَتْ مِنْ نُورِ لاَهُوتِهِ حقائق الْعِرْفان. وَرَضِي اللَّهُ تَعالى عَنْ أَصْحَابِهِ وأَهلِ بَيْته الكِرَام. أما بعد كل شيءٍ وقَبْلَه فَعِلْم التَّوْحِيدِ مِنْ أَجَلِّ العُلُومِ وأَحَقّ ما تنفق فيه نتائج الفُهُوم. وكيْفَ لاَ ومَوْضوعه الذَّات العلية وأوصافها السَّنية وأَسْمَاؤها الزَّكية. وبه يقع الخلود في نَعِيم الجِنَانِ. والفَوْز بالقُرْبِ مِنَ الكَرِيم المَنَّانِ، وهو مُنْقسم على قسْمَيْن: تَوْحِيد الدَّليل والبُرْهان، وهو لعَامَّة أَهل الإيمانِ، وتوحيد الشهود والعيَان، وهو لخوَاصّ أَهلِ الإِحْسَانِ مِنْ أَهل الذَّوْقِ والْوجْدان شَربوا كؤوس المحبَّة، فسكرُوا وغابوا عَن الْوجُودِ. ثم صحوا من سَكْرَتِهِمْ فتمتَّعُوا بحلاَوة النَّظرة والشهودِ. فيَا لَهُ من شرَاب ما أَعْذَبَهُ ومِنْ مَنْهَلٍ مَا أَحْسَنَهُ، بَيْعُ النُّفُوس في إِدْرَاكِهِ حَقيرٌ، وبَذْل الأرواح والمُهج فِي نَيْلِهِ نَزْرٌ يسيرٌ. وللَّهِ دَرّ القائِلِ:

إِنْ كَـان سَـفْـكُ دَمِـي أَقْـصَـى مُـرَادُكُـمْ  فَـمَـا غَـلَـتْ نَـظْـرَةٌ مِـنْكُـمْ بِـسَـفْـكِ دَمِـي

ومِمَّنْ أَحْرَزَ السَّبْق فِي هَذَا المَيْدَانِ وكَانَ لهُ من هَذَا السِّرِّ الخطوة والشأن الأنبياء والرُّسل عليهم الصلاة والسلام. وأَعْظَمُهم في ذلك سيّد الأنام نبيّنا عليه أَفضل الصَّلاَةِ وأَزْكَى السَّلام. إذ مِنْ بَحْرِ سِرِّهِ فاضَتْ أَسْرَارُهُمْ، ومِنْ شمس نُورِه انْفَلَقَتْ أَنْوَارُهُمْ، وكُلُّهُم مِنْ رسول الله مُلْتَمِسٌ غَرْفاً مِنَ البَحْرِ أَوْ رَشْفاً مِنَ الدِّيَم. ثم ورث عَنْهُمْ ذَلِكَ خَوَاصّ أَوْلِيائِهِ، وصفْوة أَحبائِهِ. جَاهَدوا نفوسَهُمْ بأَنواع الرياضات، وكَابَدُوا فِي طَلَبِ مَحْبُوبِهم أَقْصَى الغايات. صَدَقوا ربَّهم في المعاملاتِ، ورَفَضُوا الحُظُوظ والشَّهَوات فَحَصلَ لهم الميراث العظيم بَعْد تحقيق

نِسْبة القَرَابة المعنوية. بيّنة شهوده عقد المحبَّة. وأَحْكَام رابطة الصّحبَة. وبروز نطفة العناية مِنْ صُلْب الوِلاَية، وعُلُوقها في مَشيمَة الإرادة، وظهور جنين السَّعادة، ثم تربيته في عُشِّ أَهْلِ المَعْرفة بيْن أَبوي المراقبة والمجاهدَة. ثم تغذيته بلبَن علم اليقين إلى أَوَان فِطامه بِشهُودِ رَبّ العالمينَ. فَهَذَا هو العلم الموروث عن الأنبياء عليهم السلام، لا التوحيد الذي يُنْتجه الدَّليل والبُرْهان ويَعْتَرِيهِ الزِّيادة والنُّقْصَان، إذ قد تعرض له الشكوك والأوهامُ، التي هي محالٌ فِي حقّ الأنبِياءِ عَلَيْهِم السَّلاَمُ، ومنْ تحقق بهذا الميراث الرفيع، والسّر البديع، سلطان العشاق، وإمام الحذّاق العارف الرَّبَّاني والحبرَ الصمداني شرَف الدّين أبو جعْفَرٍ عُمَر بن علي بن المرسف المعروف بابْنِ الفارض السَّعْدي الأصل المصري الدَّار والمولود والوفاة. كَان رضي الله عنه أعجوبة زمانِهِ وَفَرِيدَ عَصْرِهِ وأَقرانِهِ وُلِدَ رضي الله عَنْهُ سَنة ستّ وسبْعِين وخمسمائة بالقاهرة، وتوفي بِهَا سنة اثنين وثلاثين وست مائة. ودُفن بِسَفح المقطم خَارج مِصر، وعليْه قبَّة عَظيمة، ومزارة شهيرة، نَفَعَنا الله ببركَاتِهِ. قال في الدِّيوان ناقلاً عن وَلد الشيخ؛ كانَ الشيخ رضي الله عنه معتدل القامة، جَميل الْوَجْهِ، مشوباً بحُمْرَةٍ، وإذا اسْتَمع وتواجد وغَلَبَ عليه الْحَال، يَزْداد وجْهُه جَمالاً ونوراً، وينحدر العَرق من جَسدِهِ حتى يسيل إلى الأرض. وكَان عليه نور وجَلالة وهَيْبة، وكَان إذا حَضَر فِي مَجْلِسٍ يَظْهَرُ على ذَلِكَ المَجْلِس سكينة. وكَانَ يحضر مَجْلسهُ أكابر الدَّوْلَة مِنَ الأُمَرَاءِ، والوزراء، والقضاة، ورُؤساء النَّاس، وهُمْ في غاية مَا يَكُون مِنَ الأدَبِ والاتضاع لَهُ، وإذا خاطبوه كأَنما يخاطبون مَلِكاً عظيماً. وإذا مَشى في المَدِينَة يَزْدَحِم النَّاس عليْه، يلتسمُونَ مِنْهُ البَرَكة والدُّعاء. ويَقصدُونَ تقبيل يدِهِ فلاَ يُمَكِّنُ أَحَداً مِنْ ذلِكَ بَلْ يُصَافِحهُ، وكَانت ثيابه حَسَنة، وَرَائحته طيبة، وكان ينفق على مَن يرد عليه نفقة مُتَّسِعَة، ويعطي مِنْ يَدِهِ عَطَاءَ جزيلاً، ولم يكُنْ يَتَسبَّبُ في شَيْءٍ مِنْ تحصيل الدنيا، وَلاَ يَقْبَلُ من أَحدٍ شَيئاً. وَبَعَثَ إلَيه السلطان أَلْفَ دِينارٍ فَرَدَّها إليه. وسأَله أَن يُجَهِّز لَهُ قَبْراً عند أُمّه، فِي قُبَّة الإمام الشافعي رضِي الله عَنْهُ فَلَمْ يأذن له في ذلك، ثم سَأَلَهُ أَنْ يُجَهِّزَ له مكاناً يكون مَزاراً يُعرف بِهِ، فلم يَنْعَمْ له بذلك.

قال رضِي الله عَنْهُ: كُنْتُ في أَوَّل تَجْريدي، أَسْتأذن والدي، وأَطْلع إلى وادِ المسْتَضْعَفِين بالجَبَل الثَّاني من المقطَّم وآوِي فِيهِ، وأُقيم في هَذِهِ السياحة ليْلاً ونهاراً، ثم أَعُود إلى والدي مِنْ أَجْلِ برِّه، ومراعات قلْبِهِ، وكَان والدي يَوْمَئذٍ خليفة الْحكم العزيز بالقاهرة ومِصر، وكان من أكابر أَهْل العِلْم والْعَمل فيجد

سُروراً بِرُجوعي إلَيه، وَيُلْزمني الجلوسَ معه في مجالس الحُكْم ومَدَارس الْعِلْم، ثم أشتاق إلى التّجريد، وأَسْتأذنُه، وأَعُود إلى السياحَةِ. وما بَرِحت أَفْعَل ذلِكَ مَرّة بَعْد مَرّةٍ، إلى أن سئل والدي أن يكون قاضي القضاةِ، فامتنع ونزل عن الحُكْم واعْتَزَل النّاس والسياحَة، وسُلُوك طريق الحقيقة، فَلَمْ يُفتحْ لي شَيْء، فَرجَعْت من السياحَةِ يَوْماً إلى المَدِينة ودخَلْت المدرسة اليوسفية فَوَجدت رَجُلاً شَيْخاً بَقَّالاً على بَابِ المَدْرَسةِ، يتوضّأ وُضُوءاً غَيْر مُرَتَّب، غَسَلَ يَدَيْهِ ثم غَسَل رِجْلَيه، ثم مَسَحَ برأسِهِ، ثم غَسَل وَجْهَهُ. فَقُلْت له يَا شَيخ: أَنْتَ في هَذَا السِّنّ في دَارِ الإسْلام وَبَيْنَ فقهاءِ المُسْلمين، وأَنْتَ تتوضّأ وضُوءاً خارجاً عَنِ التَّرْتيب الشَّرْعي، فَنظر إليَّ وقال: يَا عُمَر أَنْتَ ما يُفتح عليكَ بِمِصْر، وإنما يُفْتحُ عَلَيْكَ بِالحِجَازِ، في مكّة شرَّفها اللَّهُ، فأَقْصِدها. فَقَدْ حَانَ لَكَ وقت الفَتْح. فَعَلِمْتُ أَنَّ الرَّجُلَ مِنْ أَوْلِياءِ اللَّهِ، وأَنَّه يتَسَتَّرُ بإظهارِ الجهلِ، فَجَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ، وقُلْتُ: يَا سَيّدِي أَيْنَ أَنَا وأَيْنَ مكّةَ؟ لاَ أَجِدُ رَكْباً ولا رُفْقة فِي غَيْرِ أَشْهر الْحجِّ، فنظر إليَّ وأَشار وقَال: هذه مكّة أَمَامكَ فَنَظرتُ مَعَهُ فرَأَيْت مكّة شرَّفها اللَّهُ فتَرَكْتُهُ وطلبْتُهَا فَلَمْ تَبْرَحْ أَمامي إلى أَن دَخَلْتها في ذلِكَ الْوَقْتِ. وجَاءَنِي الفَتح حين دَخَلْتُها، وتَرَادفَ وَلَمْ يَنْقَطِعْ. قال رضي اللَّهُ عنْهُ: ثم شَرَعْتُ فِي السّياحَة في أَوْديتها وكنت أَسْتأنِس بالوَحْشِ ليْلاً ونَهَاراً، فأَقمْت بِوادٍ كان بينه وبين مكّة عشرَة أيّام للرّاكِب المجِدِّ، وكنتُ آتي مِنْهُ كل يوم وليلة، وأُصلّي في الْحَرم الشريف الصّلوات الخمس ومَعِي سَبُعٌ عظيم، يَصحبني في ذَهابِي وإيابِي، ويَنخُّ إليَّ كَمَا يَنخُّ بجمل ويقول: يَا سيّدي ارْكبْ، فما ركبته قطّ. ثم بعد خَمْسَة عَشر سَنة، سَمِعْتُ الشيخ البَقّال يُنَادي: يا عُمَرُ، تَعَال إلَى القاهرة، أحضر وَفَاتِي، فَأَتيْتُهُ مُسْرِعاً، فَوَجَدتُّه قَدِ احْتُضِرَ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عليَّ، وَنَاوَلَنِي دنَانِير ذَهبٍ. وقال: جَهِّزْ لي بِهذِهِ وافْعَلْ كَذَا وَكَذَا.. واعْط حَمَلة نَعْشِي إلى القرافة كل واحد ديناراً، واتركْني على الأرْض في هذِهِ الْبُقْعَةِ، وأَشَار بيَدِهِ إلَيْهَا فَلَمْ تَزَلْ بَيْنَ عَيْني أَنظر إلَيْها وهي القرافة عند مجرى السَّيْل تحت المسجد المعروف بالأرض بِالقُرْب مِنْ مَرَاكِعِ مُوسَى، بِسَفْحِ جَبَل المقطَّم. وانْتَظرْ قُدُوم رجُلٍ يَهْبِطُ إلَيْكَ مِنَ الجَبَلِ وَصَلِّ أَنْتَ وهُوَ عليَّ، وانتظر ما يفْعَلُ اللَّهُ فِي أَمْري. قال رضي اللَّهُ عَنْهُ: فَلَمَّا تُوفِّي جَهَّزْته كما قال، وطَرَحْتهُ في الْبُقْعة المُباركة كَمَا أَمَرني، فَهَبَط رَجُلٌ من الجَبَلِ كما يَهْبِط الطّائر المُسْرع لم أَرَه يَمْشِي على رِجْليه، فَعرفته بشخصِهِ، كنت أَراهُ يُصفع قَفَاهُ بِالأَسْوَاقِ. فقَال: يا عُمَرُ تقدَّم، فَصلِّ بِنَا عَلَى الشَّيْخِ. فتقدَّمْتُ وَصَلَّيْتُ إمَاماً، ورأَيْتُ طيوراً خُضْراً وَبِيضاً صفوفاً بيْن السماء

والأرْض يُصلُّونَ مَعَنَا، وَرَأَيْتُ طائراً مِنْهُمْ أَخْضَر عَظِيم الخلقة، قَدْ هَبَطَ عند رِجْلَيْه وابْتَلعهُ، وارْتفع إليهم وطَاروا جَمِيعاً، ولهم زجل بِالتَّسْبيح إلى أَنْ غَابُوا عَنَّا. فقال: يَا عُمَرُ، أما سَمعتَ أَنَّ أَرْوَاحَ الشهداء في جوْف طيْر خُضْرٍ تسْرَح في الجنَّةِ حيْث شَاءَتْ؟ هُمْ شهداء السُّيُوفِ. وأَمَّا شُهَدَاء الْمَحَبَّةِ، فكلُّهُمْ، أَجْسَادُهُمْ وأَرْوَاحُهُمْ في جوْف طيْر خُضْرٍ. وهذا الرَّجُلُ منْهُمْ يَا عُمَرُ. وأَنا كُنْتُ مَعَهُمْ. وإنما وقَعَتْ مِنِّي هَفوة، فطردت عَنْهُمْ. فأَنَا أصفعُ قفايا نَدماً وتأديباً على تِلكَ الْهَفْوَةِ. ثم ارْتَفَعَ الرَّجُلُ إلى الجَبَلِ كالطَّائِرِ إلى أَنْ غَابَ عَنِّي. قال ولدهُ: وفي هَذِهِ البُقْعَة المباركة، دفن الشيخ حَسَب وصيته. وضريحه بِهَا مَعْرُوفٌ. قلت: وقد تَقَدَّمَ ذَلِكَ. قال حفيدهُ رحمه اللَّهُ: وقد قلتُ في ذَلِكَ أَبْيَاتاً:

جُزْ بالقَرَافَةِ تَحْتَ ذَيْلِ الْعَارِفِ ... وَقُلْ السَّلامُ عَلَيْكَ يَا ابْنَ الْفَارِضِ
أَبْرَزْتَ فِي نَظْمِ السُّلُوكِ عَجَائِباً ... وَكَشَفْتَ عَنْ سِرٍّ مَصُونٍ غَامِضِ
وَشَرِبْتَ مِنْ بَحْرِ الْمَحَبَّةِ والْوَفَا ... فَرَوِيتَ من بَحْرٍ مُحِيطٍ غَامِضِ

قال الشيْخ رضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: رأيْت رسُولَ الله ﷺ فِي النَّوْمِ. فقال لي: يَا عُمَرُ، لِمَ تَنْتَسِبْ؟ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إلى بني سَعْدٍ، قبيلة حَليمَة السعدية مُرضعتكَ فقال ﷺ: لاَ بُدَّ أَنْتَ مِنِّي. ونَسَبُك متَّصل بِي. فَقُلْت: يا رسول الله. إني أَحْفظ نَسَبِي عن أَبِي وجدِّي. إلى بني سَعْدٍ. فقال: لاَ ـ مَادًا بِهَا صَوْتَهُ ـ بَلْ أَنْتَ مِنِّي. ونسبُك متَّصل بِي. فَقُلْتُ: صَدَقْتَ يا رسول اللَّهِ. مكَرراً لِذلِكَ. وهذه النِّسْبَة، إمَّا أَنْ تكون نِسْبَة الأهلية؛ أَوْ نِسْبة المحبَّة. ونسْبَة المحبَّة أشرف من نِسْبَة الأبوَّة؛ وهي التي قَرَّبَتْ بِلاَلاً وصُهَيْباً، وَسَلْمَان الفَارسي مِن أَهْلِ البَيْت. وأَبْعَدَتْ أَبَا طالبٍ وأَبَا جَهْلٍ. وإلى هَذَا، أَشَارَ الشيخ في قصيدتِهِ الْيَائية، حَيْثُ قال:

نَسَبٌ أَقْرَبُ فِي شَرْعِ الْهَوَى ... بَيْنَنَا مِنْ نَسَبٍ مِنْ أَبَوَيْ

فَقُلْتُ: وقد رُمِيَ الشيخ ابن الْفَارِض، بما رُمِيَ بِهِ غَيْرُهُ من المحققينَ. كالششتري، وابن سَبْعينَ، من الحُلُول والاتِّحَادِ. حتى أَنَّ بَعْض أَهْلِ الظَّاهِرِ نَهَى قِرَاءة تائيتِهِ؛ التي سَمَّاها: أنفاس الجنان، ونفائس الجنان. ثم رأى رسول الله ﷺ فَقَالَ لَهُ: سَمِّها نظم السلوك، فَسَمَّاها بذلِكَ. ثم امْتُحِنَ النَّاهِي بِمُصيبَة، فَتَابَ وَرَجَعَ عَنْ ذَلِكَ. فقال حفيدهُ: وكيف يتصَوَّر مِنَ الشيْخ أن يميلَ في قصيدته إلى الْحُلُولِ. وَقَدْ نَزَّهَ عقيدَتَهُ عَنْهُ فِي قَولِهِ فِيهَا:

وكَيْفَ باسم الحَقِّ ظَلَّ تحققي ... تَكُونُ أَرَاجِيفُ الضَّلاَلِ مُخِيفَتِي

وَهَا دَحْيَةٌ وَافَى الأَمِينَ نَبِيَّنَا ... بِصُورَتِهِ فِي بِدْءِ وَحْيِ النُّبُوءَةِ
أَجِبْرِيلُ قُلْ لِي كَانَ دَحْيَةَ إِذْ بَدَا ... لِمُهْدِي الْهُدَى فِي هَيْأَةٍ بَشَرِيَّةِ
وَفِي عِلْمِهِ عَنْ حَاضِرِيهِ مَزِيَّةٌ ... بِمَاهِيَةِ الْمَرْءِ مِنْ غَيْرِ مِرْيَةِ
يَرَى مَلَكاً يُوحِي إِلَيْهِ وَغَيْرُهُ ... يَرَى رَجُلاً يُدْعَى إِلَيْهِ بِصُحْبَةِ
وَلِي مِنْ أَتَمِّ الرُّؤْيَتَيْنِ إِشَارَةٌ ... تُنَزِّهُهُ عَنْ رَأْيِ الْحُلُولِ عَقِيدَةِ

وَمَعْنَى كَلام الشيخ: أَنَّ الكَوْنَ كُلَّهُ كصُورة جِبْرِيلَ، حينَ تصوَّرَ على صورة دَحْيَة. فظاهره دَحية، وباطنه جِبْرِيلَ. فإذا حققتَ، لَمْ تَجِدْ إلاَّ جِبْرِيلَ. وَلاَ حُلُولَ وَلاَ اتّحاد. إذْ لاَ شَيْءَ مَعَهُ. وكذلك الكَوْن مَعَ نُور الحق، اللَّهُ نور السماوات والأرض. فَافْهَمْ. قلتُ: وللشيخ قصائد كثيرة، جَمَعَها حفيده في ديوانٍ مستقل. وأشهرها وأَنْفَسُهَا تائِيتُه: نظَّم السلوك الذي تقدَّم ذِكْرُها. كَان يقول فيها رضيَ اللَّهُ عَنْهُ: هذه القصيدة الغَرَّاء. والفريدة الزَّهراء. لم يُنْسَجْ على مِنْوَالِهَا. وَلاَ يُسْمَحُ خاطر بمثالِهَا. تكَادُ تخرُجُ عن وُسْع طَوْر الْبَشَرِ. وَحَكَى جَمَاعة مِنَ العلماء. ممَّن كَانُوا يصحبُونَ الشيْخَ وَيُبَاطِنُونَهُ: إنَّ الشَّيْخَ لَمْ يَكُنْ نَظَّمَهَا على حَدِّ نَظْمِ الشُّعَرَاءِ. بَلْ كَانَ يَحْصُلُ لَهُ جَذبات، يغيبُ فيها عَنْ حَوَاسِّهِ الأيَّام، نَحْوَ الأسْبُوعِ والعَشَرَة. فإذَا أَفَاقَ أَمْلَى ما يُفْتَحُ عليْه مِنها مِنَ الثلاثينَ والأربَعينَ والخمسينَ بَيْتاً. ثم يَدَع، حَتَّى يُعَاوِدَهُ ذلِكَ الْحَال. قلت: ويقرب مِنْهَا قصيدتهُ الميمية الخمرية. التي أَرَدْنَا الكَلاَمَ عَلَيْهَا. بَلْ هِيَ أَعْذَبُ مِنْهَا لَفظاً، وأَسْلَسُ مِنْهَا نَظْماً. لاَ يَنْطِقُ بِهَا إلاَّ لِسَانُ مَلَكُوتِي. وَقَلْبٌ جَبَرُوتِي. بَالَغَ فيها في مَدْحِ الخَمْرَةِ الأزلية. وأَبْدَى فيها أَسْرَار الحقيقة الغيْبية، كشف فِيهَا رِدَاء الصَّوْنِ عَنْ أَسْرَارِ جَبَرُوتِهِ. وأَنْوَارِ مَلَكُوتِهِ. فَجَزَاهُ اللَّهُ عَنَّا أَحْسَنَ الجَزَاء. لقد قَرَّبَ الْمَدَارِكَ. وبيَّنَ المَسَالِكَ فِي أَوْجَزِ عِبَارَة. وأَرْشَقِ إِشَارَة. فأَرَدْنَا بِعَوْنِ اللَّهِ أَنْ نَضَعَ لَهَا تقييداً مختصراً، يُبَيِّنُ أَلْفَاظَهَا، وَيُحِلُّ مَعْنَاهَا. بَعْدَ الاسْتِخَارَةِ النبويّة، والإشارة المعنوية؛ وَهَذَا أَوَان الشُّرُوعِ فِي التَّقْيِيدِ المَذْكُورِ. مُعْتَمِداً على حَوْلِ اللَّهِ وقُوَّتِهِ. وَمَا يَفْتَحُ بِهِ الحقّ تَعَالى من مَوَاهِبِ مِنَّتِهِ. فأَقُولُ، وبِهِ أَحُولُ وأَصُولُ. قال الشيخ رضي اللَّهُ عَنْهُ:

شَرِبْنَا عَلَى ذِكْرِ الْحَبِيبِ مُدَامَةً ... سَكِرْنَا بِهَا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُخْلَقَ الكَرْمُ

قلتُ: المُدَامَةُ والمُدَامُ: اسم للْخَمْرِ؛ لأنَّ العَرَبَ كَانَتْ تحِبُّ دَوَامَهَا عِنْدَهُمْ. فَسَمَّوْهَا بِهِ تَفَاؤُلاً. والكَرْمُ: شَجَرَ الْعِنَبِ. والْعِنَبُ نَفْسُهُ. يَقُولُ رضِيَ اللَّهُ

عَنْهُ: شَرِبْنَا عَلى إثرِ ذِكْرِ الْحَبِيبِ بِالقُلُوبِ والأرْوَاحِ خَمْرَةً صَافِيةً في مَقَامِ الصَّفا. سَكِرْنَا بِهَا، فَغِبْنَا عَنِ الإحْسَاسِ. وَرَأَيْنَا أَنْوَارَ الحبيبِ في كل شَيْءٍ، وَمَعَ كل شَيْءٍ. وقبل كل شيْءٍ، وَبَعْدَ كُلِّ شَيْءٍ، فَغَيَّبْنَا السُّكْرَ عَنْ ظُلمة الأكوانِ الْحَادِثَةِ، وأَبْصَرْنَا أَنْوَارَ القِدَمِ الباقية. قُلْتُ: وقَدْ أَشَرْتُ إلى هَذَا المَعْنَى فِي عَيْنِيَتِي فَقُلْتُ:

سَكِرْنَا فَهِمْنَا فِي بَهَاءِ جَمَالِهِ ... وَغِبْنَا عَنِ الإحْسَاسِ والنُّورُ سَاطِعُ

تَبَدَّتْ لَنَا شَمْسُ النَّهَارِ وأَشْرَقَتْ ... فَلَمْ يَبْقَ ضَوْءُ النَّجْمِ والشَّمْسُ طَالِعُ

يقولُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وَقَعَ لَنَا هَذَا السكر بِالخَمْرَةِ الأزلية المعنوية. قَبْلَ أَنْ يُوجَد الكَرْم؛ التي تكون منه الخمرة الحسّية. وإلى هذا المَعْنَى، أَشَار الششتري رضيَ اللَّهُ عَنْهُ بِقَوْلِهِ:

لاَ شَرَابُ الدَّوَالِي ... إِنَّهَا أَرَضِيَّا

خَمْرُهَا دُونَ خَمْرِي ... خَمْرَتِي أَزَلِيَّا

فقوله: سَكِرْنَا بِهَا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُخْلَقَ الكَرْمُ، يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ هَذَا السُّكْرُ بَعْد ظهُورِ عَالَم الأشباحِ. وأَنَّ الرّوحَ سَكرتْ على ذكرِ الْحَبِيبِ بخَمْرَةٍ أَزَلية. قبل ظُهُورِ العِنَبِ الذي تكونُ منه الخمرة الحسية الأرْضية. والمراد، أنه سكر بخمرَةٍ مَعْنَوِيَّةٍ قَبْلَ ظُهُورِ مَادَّةِ الخَمْر الحسية؛ ويحْتَمَلُ أَنْ يَكُون هَذَا السُّكْرُ لِلرُّوحِ في الأزَلِ، في عَالَم الأرْوَاحِ، قَبْلَ ظهور عالم الأشباحِ. فيكون قَوْلهُ: قَبْلَ أَنْ يخلق الكَرْم، على ظَاهِرِهِ. أَيْ قَبْلَ أَنْ تَظْهَرَ مَادَّة الخمرة الحسية. ويؤيد قولهُ فيما يأتي: فَعِنْدِيَ مِنْهَا نَشْوَة قَبْلَ نَشأَتِي ـ البيْت ـ. وسيأتي الكَلاَمُ عليه إن شَاءَ اللَّهُ. والاحْتمال الأول أَظْهَرُ. واللَّهُ أَعْلَمُ. وسُمِّيَتِ الْغَيْبَة في اللَّهِ سُكْراً. لاشْتِرَاكِهَا مَعَ السُّكْرِ الحسّي فِي الْغَيْبَةِ عَنِ الحسّ. فإنَّ نُور العَقْلِ، كَمَا يُسْتَر بالظلمة الطينية؛ وهي النَّشوة النَّاشئة عن الخَمْرَة الحسِّيَّة. كَذَلِكَ يُسْتَرُ بالأَنْوَارِ المَعْنَوِيَّةِ، المفاجِئَةِ لَهُ مِنَ الْخَمْرَةِ الأزلية. فيغيب عن الإحْسَاس. فلِذلِكَ سَمَّوْا تلك الغَيْبَة سُكْراً. واللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ. وهَاهُنَا اصْطِلاَحَاتٌ لِلْقَوْمِ. نَذْكُرُ مِنْهَا مَا يتوقَّفُ عَلَيْهِ فهم كَلاَم النَّاظِمِ مِنْهَا: الذَّوْقُ، والشُّرْبُ، والسُّكْرُ، والصَّحْوُ، ومِنْها الحسّ والمَعْنَى. ومِنها القَدْرة والحِكمَة. ومِنها الْوُجْدُ والْوُجْدَانِ، والْوُجُود. ومِنها الجَمْعُ والتَّفْرِقة. أَمَّا الذَّوْقُ؛ فَهُوَ بُرُوق أَنْوَارِ الذَّاتِ الْقَدِيمَةِ على الْعَقْلِ. فيغيب عن رُؤْيَةِ الْحُدُوثِ، في أَنْوَارِ القِدَم. لكِنَّهُ لاَ يَدُومُ ذَلِك. بَلْ يَلْمَعُ تارَةً. ويخفى أُخْرَى، فإذَا لَمَعَ غَابَ عَنْ حِسِّهِ. وإِذَا خَفِيَ

رَجَعَ إلى حِسِّهِ؛ وَرُؤْيَةِ نَفْسِهِ. فَهَذَا يُسَمَّى عِنْدَهُمْ ذَوْقاً. فإن دَامَ لَهُ ذلِكَ النُّورُ سَاعَةً أَوْ سَاعَتَيْنِ فَهُوَ الشُّرْبُ. وإذا اتَّصَلَ وَدَامَ فَهُوَ السُّكْرُ. وَمَرْجِعُهُ إلى فَنَاءِ الرُّسُومِ، فِي شُهُودِ الحيِّ القَيُّوم. والغَيْبَة عن الأثَرِ، في شُهُود المُؤَثِّرِ. ويسَمَّى أَيْضاً بِالفَنَاءِ. فإنْ رَجَعَ إلى إثْبَاتِ الأشياءِ بِاللَّهِ، وقيامها بِهِ. وَرَآهَا نُوراً مِنْ أَنْوَارِهِ، لاَ وُجُودَ لَهَا مَعَهُ. فَهُوَ الصَّحْوُ. وَيُسَمَّى أَيْضاً البَقَاء؛ لإبْقَاءِ الأشْيَاءِ بِاللَّهِ بَعْدَ فَنَائِهَا بِنوره البَصِيرَةِ فِي اللَّهِ. وَقَدْ أَشَارَ صاحبِ الحِكَمِ الْعَطائِية إلَى هَذَا الْمَعْنَى بِقَوْلِهِ: شُعَاعُ البصِيرَةِ يُشْهِدُك قرْب الحق مِنْكَ. وَعَيْنُ الْبَصِيرَة يُشْهِدُكَ عَدَمَك لوجودِهِ. وحَقُّ البصيرَةِ يشهدكَ وُجُودُ الحقِّ. لاَ عَدمَك وَلاَ وُجُودكَ. كَان اللَّهُ وَلاَ شَيْءَ مَعَهُ وَهُوَ الآنَ على ما عَلَيْهِ كَانَ. وقال أَيْضاً فِي بَيَانِ السّكر والصَّحْو، وبيان الشريعة والحقيقة. فقال بَعْد كَلاَم: وصاحب حقيقة: غابَ عن الخلق بِشُهُودِ المَلِكِ الحَقّ. وفَنَى عَنِ الأسْباب، بِشُهودِ مسبّب الأسْبَاب. فَهذا عَبْدٌ مواجَه بالحقيقة. ظاهر عليه سَنَاهَا سَالك للطريقةِ. قَدِ اسْتولى على مَدَاها، غَيْرَ أَنَّهُ غَارق الأنْوار. مطمُوس الآثار. قَدْ غَلَبَ سكره على صحوه، وَجَمْعه على فَرْقِهِ وغيبته على حضورِه. وأكْمَلَ منْهُ رجُلٌ شَرِبَ فَازْدَاد صَحْواً. وغاب فازداد حضوراً. فَلاَ جَمْعه يحجبُه عن فَرْقِهِ. وَلاَ فَرْقُهُ يَحْجبُهُ عَنْ جَمْعِهِ. وَلا فناؤهُ يَصُدّهُ عَنْ بَقَائِهِ. وَلا بقاؤه يصرفه عن فنائِهِ. يُعْطي كل ذي قسْط قسْطهُ. ويوفِي كل ذي حق حقَّهُ، وأَمَّا الْوُجْدُ فَهُوَ وَارِدٌ يُحَرِّكُ القَلْبَ وَيُزْعِجُهُ. إمَّا شَوْقٌ مقلِق، فيثير بَسْطاً وسُرُوراً. وإمَّا خَوْفٌ مُزْعِجٌ فيثير قَبْضاً وحُزْناً. أَمَّا الْوُجْدَانُ فَهُوَ: دَوَامُ حَلاَوَةِ الشُّهُودِ، وَاتِّصَالِهَا للواجِدِ. مَعَ غَلَبَةِ السَّكْرِ والدَّهَش.. فإنِ اسْتَمَرَّ مَعَ ذَلِكَ، حتى زَالت الدَّهشة والحيْرة. وصَفَتِ الفكرة والنظرة. فهو الوجود، وإلى هَذَا أَشَارَ الجُنيْدُ رضيَ اللَّهُ عَنْهُ بقولِهِ: وُجُودِي أَنْ أَغِيبَ عَنِ الْوُجُودِ، بِمَا يَبْدُو عَلَيَّ مِنَ الشُّهُودِ. واعْلَمْ أَنَّ مثار الْوُجْد، هو سماع خطاب المحبوبِ. ومَثَار الوُجْدَانِ، هُوَ شُهُود جَمَال المحبوب. وَقَدْ يَغْلب عليهما الْحَال، فتضطر الأشباح، وترْقصُ تبعاً لاضطراب الْقَلْبِ. ومثال ذلِكَ الطفل في الْمَهْدِ، فإنه يسْكن إذا تَحَرَّكَ بِهِ الْمَهْدِ. ويبكِي إذَا سَكَنَ. كذلِكَ الْقَلْبُ يَرْتَاحُ إذَا تَحَرَّكَ الْقَلْبُ. وإلاَّ بقِي يضطربُ. فَرُبَّمَا يخرجُ عَنْ طَوْرِهِ. وأَمَّا صَاحِبُ الوُجْد فهو سَاكنٌ متمكِّنٌ، قدِ اسْتَأْنَسَ بِالحَضْرَةِ. وَزَالَتْ عَنْهُ الدَّهْشَةُ والحَيْرَةُ؛ فَهُوَ كالْجَبَلِ الرَّاسِي. قيل للجنيْدِ رضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: مَا لَكَ؛ كُنْتَ تتواجَدُ عنْد السَّمَاع. ثم صرت لا يتحرَّك منك شيءٌ؟ فَتَلى قوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ

ٱلتَّحَابِّ﴾. وشاهِد ذلِكَ. صواحِبُ يُوسُف عليه السلام، فإنَّه لما فجأَهُنَّ بِبَاهِرِ جَمَالِهِ: غِبْنَ عَنْ إحْسَاسِهِنَّ ﴿وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾، وَزُلَيْخَا لَمَّا اسْتَمَرَّتْ مَعَهُ، لم تَصْنَع شيئاً مِنْ ذَلِكَ. كذلك أَرْبَابُ الْوُجْدَانِ. لَمَّا استُشرَفُوا على نُورِ الحَضْرَةِ، دُهِشُوا وغَابُوا عَنْ إحْسَاسِهِمْ. فَإِذا تَمَكَّنُوا مِنْ شُهُودِهَا، وَأَنِسُوا بِهَا، لَمْ يُحَرِّكهم شيْء مِنْ أَنوارِهَا. وقد يَغْلِبُ على العَارِف شهود الْجَمَالِ. فيرقص وَيَطربُ، لكنَّهُ نَادِرٌ. واللَّهُ تَعَالى أَعْلَمُ. وأَمَّا الجمعُ والتفرقة: فالجمع عبارة عن تلاشي الحديث في إثباتِ الْقِدَم. أَوْ تقول: عبارة عن ضَمّ الفُرُوع إلى أُصُولِهَا فَيَفْنَى مَا لَمْ يَكُنْ. وَيَبْقَى مَا لَمْ يَزَلْ. والتَّفْرِقَةُ عِبَارَةٌ عَنْ إثْبَاتِ الأحْكَام. والحِكمَةِ: قياماً بِرَسْمِ الْعُبُودِيَّةِ، وأَدَباً مَعَ الرُّبُوبِيَّةِ. فالجَمْعُ مَحَلُّهُ البَوَاطن. والفَرْقُ مَحَلُّهُ الظَّوَاهِرُ. إذ الرَّبوبية بِلاَ عُبُودِية نقصانٌ. والْعُبُودية بِلاَ رُبُوبية مُحَالٌ. فلذلك قالُوا: الجمع بِلاَ فَرْقٍ زَنْدَقَة، لإبطَالِهِ الأحْكَامَ والحكمة. والفَرْقُ بِلاَ جَمْع فسْق؛ لإخْراج صاحبه عَنْ حَدِّ الكَمَالِ. والجمع بَيْنَهُمَا عَيْن الكَمَالِ. ولقد سَمِعْتُ شَيْخَ شيخنا رضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: قوم تشَرَّعُوا وَلَمْ يَتَصَوَّفُوا، وقوم تَصَوَّفُوا ولم يتشَرَّعُوا. وقَوْمٌ جَعَلُوا الشَّرِيعَةَ باباً. والحقيقة أَبْوَاباً. ﴿أُولَٰئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾. وَهَذا أَوَّلُ كَلاَم سَمِعْته مِنْهُ عِنْدَ مُلاَقَاتِهِ، وقال لي: وأَنْتَ مِنَ القسم الثَّالِث. حَقَّقَنَا اللَّهُ بِمَحَبَّتِهِمْ، وَرَزَقَنَا الأَدَبَ مَعَهُمْ آمين. وأَمَّا الحسُّ، فهو عبَارَةٌ عَمَّا تَكَثَّفَ وَظَهَرَ مِنَ الأَكْوَانِ. والْمَعْنَى: عِبَارة عن النُّورِ اللطيفِ الْبَاطِنِ فِيهَا. وأَمَّا السِّرُّ الَّذي قَامَتْ بِهِ الأَشْيَاءُ. فَالحِسُّ ظرفٌ لِلْمَعْنَى. فالأكْوَانُ أَوَانِي، حَاملة للْمَعَاني. واللَّهُ تَعَالى أَعْلَمُ. والْقُدْرَةُ: عِبَارَةٌ عَمّا يَصْدُرُ عَنِ الذَّاتِ العَلية من الأفعال. أَكَانَ عَلَى وِفْقِ الْعَادَةِ أَوْ خَارِقاً لَهَا. والحِكْمَةُ: عِبَارَة عَنْ رَبْطِ الأَسْبَابِ بِمُسَبِّبَاتِهَا، والعَوَائِدُ بما تعوَّدَتْ بِهِ؛ فَهِيَ رداءٌ للقُدْرَةِ وسترٌ لَهَا. فَمَنْ وَقَفَ مَعَ رِداءِ الحِكْمَةِ، كان محْجُوباً عَنْ شُهُودِ الْقدْرَةِ. وَمَنْ حُجِبَ عَنِ الصِّفَةِ. حُجِبَ عَنِ الْمَوْصوفِ، لمتلازم وُجُودهما. واللَّهُ تَعَالى أَعْلَمُ. فَمَعْرِفَةُ هَذِهِ الأشْيَاءِ، تُعِينُ عَلَى فَهْمِ الْقَوْمِ. واللَّهُ تَعَالى أَعْلَمُ. ثُمَّ قَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

لَـهَـا الْـبَـدْرُ كَـأْسٌ وَهْـيَ شَـمْـسٌ يُـدِيرُهَـا هِـلاَلٌ وَكَـمْ يَـبْـدُو إِذَا مُـزِجَـتْ نَـجْـمُ

يقولُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لهذِهِ الخَمْرَةُ الأزلية: كَأْسٌ، وهِي قمر التوحيد الخاصّ. فمن كَان مشركاً بثنوية السّوي، أو برُؤيةِ الأشياء مَعَ الْمَوْلَى، فَلاَ يَشْرَبُ من خَمْر الْهَوَى. أَوْ نقول: مَن كَانَ قلبهُ مشحوناً بِحبّ الأشياء، أَوْ مفتوناً بِنيْل

الدُّنيا، فَلاَ يذوق شيئاً مِنْ هَذِهِ الحُمَيَّا: «أي الخمر». وهذه الخمرة هي شمس العِرْفَان، فَإِذَا أَشْرَقَتْ فِي أُفُقِ سماء الجبان، غطّت وجود الأكْوَان، وَوَقَعَ العيَان على فَقْده الأعْيَانِ. يُدِيرُها عَلَى الشَّاربينَ، هِلاَل السَّعَادة، في طالع سَعْدِ الإرَادَةِ. فإذا شَربت صرفاً غابَ النَشْوَان عن الرُّسُوم. ولم يَبْقَ فِي نَظَرِهِ إلاَّ أنوار الحيّ القيُّوم. فَإِذَا مُزجَت بالصَّحْو والسلوك، صار كاملاً مكمّلاً. فَكَمْ يَبْدُو لَهُ حينئذٍ من نَجْمِ الْعُلُومِ. وَكَمْ يُفْتحُ له مِنْ مَخَازِنِ الفُهُومِ. فَإِذَا أُذِنَ لَهُ في التَّعْبِير، وَقَعَتْ مَسَامع القلوبِ عبارتُهُ. وجُليت إليهم إشارته. قال الشيخ أَبُو الحَسَن الشَّاذِلي رضيَ اللَّهُ عَنْهُ في بَعْضِ كَلاَمِهِ على المحبَّةِ: الشَّرَاب هو النُّور الساطِع مِنْ جَمَال المحبوب. والكَأْسُ هو اللطف الموصّل ذلك، إلى أَفْوَاه القُلُوب. والسَّاقي: هو المتولّي ذَلِكَ لخصوص الكبراء والصَّالِحينَ مِنْ عبادِهِ. وَهُوَ اللَّهُ الْعَالِمُ بالمقادِيرِ. ومَصَالح العبادِ. فَمَنْ كُشِفَ لَهُ عن ذلِكَ الْجَمَالِ. أو حُظِيَ شَيْء منْهُ، نَفَساً أَوْ نَفَسَيْنِ، ثم أرخي عليه الحجاب؛ فهو الذَّائق المشتاق. ومَنْ دَامَ لَهُ ذَلِكَ سَاعَةً أَوْ سَاعَتَيْنِ؛ فَهُوَ الشَّارِبُ حَقّاً. ومَن تَوَالَى عليْه الأمْرُ، ودَامَ لَهُ الشُّرْبُ، حتى امْتَلأَتْ عُرُوقُهُ ومَفَاصِلُهُ، مِنْ أَنْوَارِ اللَّهِ المخْزُونَةِ، فَذَلِكَ هُوَ الرَّيُّ. وَرُبَّمَا غَابَ عَنِ المَحْسُوسِ والعُقُولِ. فَلاَ يَدْرِي مَا يُقَالُ، وَلاَ مَا يَقُولُ. فَذَلِكَ هُوَ السُّكْرُ. وقد تَدُورُ عليْه الكَاسَات، وتَخْتَلف لديْهم الحالاَت. وَيُرَدُّونَ إلى الذِّكْرِ والطَّاعَاتِ. وَلاَ يُحْجَبُونَ عَن الصِّفَاتِ حتى تُزاحم المقدوراتِ. فَذَلِكَ وقت صَحْوِهِمْ، واتساع نَظَرِهِم، ومزيد عِلْمِهِمْ. فَهُمْ بِنُجُومِ الْعِلْمِ، وقمر التوحيد يَهْتَدُونَ في لَيْلِهِمْ، وبشموس المعارف يستَضيئُونَ في نَهَارِهِمْ. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾. انتهى كَلاَمُهُ رضي اللَّهُ عَنْهُ وأَرْضَاهُ؛ وهو قريب مِنْ كَلاَمِ النَّاظِمِ رضي اللَّهُ عَنْهُ. ثم قال:

وَلَـوْلاَ شَـذَاهَـا مَـا اهْـتَـدَيْـتُ لِـخَـانِـهَـا ... وَلَـوْلاَ سَـنَـاهَـا مَـا تَـصَـوَّرَهَـا الْـوَهْـمُ

قلت: الشَّذَا: النَّسيم الطَّيِّبُ. وقال في القاموس: الشذا: قُوَّة ذكَاءِ الرَّائِحة. والخَانُ: دَارٌ يُبَاع فيها الخَمْرُ أَوْ يُشْرَبُ فِيهَا. وقال في القاموس: الخَانُ: الحانوت أَو صاحبُهُ. وخان: التجار. والسَّنا بالقصر؛ هو: الضَّوْءُ والنُّورُ. والوَهْمُ: الخاطِرُ. أَطْلقَهُ هُنَا عَلَى الْعَقْلِ؛ لأَنَّهُ مَحَلُّهُ. يَقُولُ رضيَ اللَّهُ عَنهُ: هذه الخَمْرَة الأزلية رفيعَة القَدْرِ، عَالية الشَّأْنِ، لطيفة خفيَّة. لاَ تُنَالُ بِحِيلَةٍ وَلاَ سَبَبٍ. فَلَوْلاَ نَسِيمها الطَّيِّبُ الَّذِي يَهُبُّ عَلى القُلُوبِ، فتستنشقُهُ الأرْوَاحُ، وتنجذِب إلى حَضْرَةِ

عَلاَّم الْغُيُوبِ. مَا اهْتَدَيْنَا لِمَحلِّهَا، وَلاَ تَوَجَّهْنَا إِلَى طَلَبِهَا. لكِنْ لمَّا لاَحَ لَنَا هِلاَلَ الهدَايَة، في طالِعِ سابق العِنَايَةِ، هَبَّ على قُلُوبِنَا نَسِيم الخصُوصية مِنْ حَضْرَةِ عَظَمَةِ الرُّبُوبِيَّةِ. فَمَا زِلْنَا نَقْفُوا أَثَرَهَا، وَنَسْتَنْشِقُ نَشْرَهَا، حَتَّى أَفْضَتْ بِنَا إلى شُهُودِ أَنْوَارِ الحبِيبِ. وَمُنَاجاة القَرِيبِ منْ محلّ المشاهدة والمُكَالَمَةِ، والمُصَالَحَة، والْمُوَاجَهَة. فَقُلْنَا فِي ذلِك الْحَال:

لَـكَ الـدَّهْـرُ طَـوْعٌ والأَنَـامُ عَـبِـيـدُ فَـعِـشْ كُـلَّ يَـوْمٍ مِـنْ أَيَّـامِـكَ عِـيـدُ

قال الشيْخ أَبُو الحَسَن رضيَ اللَّهُ عَنْهُ: مَثَلُ ابْتداءِ المَحَبَّةِ، كمثلِ رَجُلٍ شَمَّ رائحة المِسْكِ على بُعْدٍ، فَلاَ يَزَالُ يتبَعُ تِلكَ الرَّائحَةَ، وهيَ تتزَايَدُ عَلَيْهِ، حتى يَدْخُلَ البَيْتَ الَّذِي فيه المِسْك. فإِذَا دَخَلَهُ غَمَرَتْهُ الرَّائِحَةُ. فَلاَ يُحِسُّ بِهَا. فَالمَعْنَى كَذلِكَ طَالِبُ الحقّ، لاَ يَزَالُ يَنْجَذِبُ قَلْبُهُ إلى الْحَضْرَةِ؛ ويتعَطَّشُ إِلَيْهَا. وَيَتَوَجَّهُ إِلَيْهَا بِأَنْوَارِ التَّوَجُّهِ؛ وهِيَ حَلاَوَةُ الْمُعَامَلَةِ، حتَّى يَغرَقَ في أَنْوَارِ الْمُوَاجَهَةِ؛ وهِي حَضْرَةُ المُشَاهَدَةِ، فَيَسْكُن حالهُ، وَيَزُولُ عطشُهُ بحصول الْوُصُولِ إلى الحبيبِ. فَلَمْ يَبْقَ إلاَّ الأدَب والتَّرَقِّي فِي المَقَامَاتِ. هَذَا مَحَلُّ الشطر الأول. وقولُهُ: وَلَوْلاَ سَنَاهَا مَا تَصَوَّرَهَا الْوَهْمُ: يَعْنِي أَنَّ هَذِهِ الخمرةَ خفيةٌ عَنِ الأَوْهَام خَارِجَةٌ عَنْ مَدَارِكِ الْعُقُولِ والأَفْهَام. فَلَوْلاَ أَنْوَارُهَا الَّتي تشرق على الْقُلُوبِ، بَعْدَ صَفَائِهَا مِنَ الأَغْيَارِ. وتطهيرها مِنَ الأَكْدَارِ. ما تَصَوَّرَهَا الْعَقْلُ، وَلاَ أَدْرَكَهَا الْفَهْمُ. إِذْ لاَ تُدْرَك بِالْعُقُولِ. وَلاَ بِتَحْصِيلِ النُّقُولِ. وَإِنَّمَا تُدْرَكُ بِصُحْبَةِ الرِّجَالِ. أَهْل التحقيق والكَمَالِ؛ لأَنَّهَا أَذْوَاقٌ فَلاَ تَدْرَك من الأَوْرَاق. كما قَال ابن البَنَّا في مَبَاحِثِهِ:

إِيَّـاكَ أَنْ تَـطْـمَـعَ أَنْ تَـحُـوزَهُ مِـنْ دَفْـتَـرٍ أَوْ شِـعْـرٍ أَوْ أُرْجُـوزَةِ

وقال أَيْضاً:

مَـا نَـالَـهَـا ذُو الْـعَـيْـنِ والْـفُـلُـوسِ وإِنَّـمَـا تُـبَـاعُ بِـالـنُّـفُـوسِ

فَمَنْ بَاعَ نَفْسَهُ لشَيْخ كَامِلٍ حَكَّمَهُ عَلى نَفْسِهِ. أَشْرَقَتْ عَلَيْهِ أَنْوَار الْمَعَارِفِ. وَأَدْرَكَ مِنْ مِنَنِ اللَّهِ مَا لا يُحِيطُ بِهِ وَصْفُ واصِفٍ. وإِلاَّ أَتْعَبَ نَفْسَهُ وَمَنْ تَعلَّقَ بِهِ. هَذَا هُوَ الْغَالِبُ والنَّادِرُ لاَ حُكْمَ لَهُ. وبالله التوفيق: ثم قَالَ رضي اللَّهُ عَنْهُ:

وَلَـمْ يُـبْـقِ مِـنْـهَـا الـدَّهْـرُ غَـيْـرَ حُـشَـاشَـةٍ كَـأَنَّ خَـفَـاهَـا فِـي صُـدُورِ الـنُّـهَـى كَـتْـمُ

قُلْتُ: الحُشَاشَةُ: بقية الرُّوحِ، في المريض في آخِرِ الرَّمق. قاله في القاموس. والنُّهَى بِالضَّمِّ جَمْعُ نُهْيَة؛ وهو الْعَقْلُ؛ وهُوَ عَلَى حَذْفِ مُضَافٍ. أَيْ

أَهْلُ النُّهَى يَقُولُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ذَهَبَتْ هَذِهِ الخَمْرَة مِنْ قُلُوبِ النَّاسِ. وانْدَرَسَتْ بِذَهَابِ أَهْلِهَا. وَمَاتَتْ بِمَوْتِ أَرْبَابِهَا. وَانسَلَّتْ مِنْ قُلُوبِ النَّاسِ كَانْسِلاَلِ الرُّوحِ مِنَ الْجَسَدِ. وَلَمْ يُبْقِ مِنْهَا الزَّمَانُ إلاَّ نطفة ضعيفة، كَبَقِية الرُّوحِ مِنَ الْمَيِّتِ في آخِرِ رَمَقِهِ؛ وهذه الخمرة التي ذَكَرَ الشَّيْخُ هِيَ: اخْتِمَار القلوب بِأَنْوَارِ المَحْبُوبِ، فَيُحْتَجَبُ عَن الأغْيَارِ، بِرُؤْيَةِ الْوَاحِدِ القَهَّارِ. وقد كَانَتْ هذه الخَمْرَة في الصدر الأول، ظَاهِرَة أنوارهَا. بَادية أسْرَارها على أَرْبَابِها. فَيَتَدَاوَلُونَها. بَيْنَهُمْ. ويتكَلَّمُونَ عَلَيْهَا بِأَلْطَافِ العِبَارات. وأَنواع الإشَارَاتِ، ثم انْدَرَسَتْ. وقلت: فخفيت أنوارهَا، وبطنتْ أَسْرَارُهَا. فَكَأَنَّ خَفَاءَها وَبُطُونَهَا كَتْمٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لَهَا عَنْ غَيْرِ أَهْلِهَا. وَذَلِكَ لاسْتِيلاَءِ الْغَفْلَةِ على النَّاسِ، وانْصِرَاف الهِمَّة إلى الدُّنيا. فَلَمَّا رَأَى الحقُّ تعالَى النَّاس حَادُوا عَنْ بَابِه. وَلاَذُوا بِغَيْرِ جَنَابِهِ. حَجَب ذلكَ السِّرّ في قُلُوبِ أَوْلِيَائِهِ، وحَجَبَ أَوْلِيَاءَهُ فِي عِبَادِه. وَمَا قالهُ الشَّيْخُ رضي اللَّهُ عَنْهُ، مِنْ قِلَّة وجود هَذَا العلم وانْدِرَاسِهِ، قَالَه غَيْر واحدٍ قَبْلَهُ وبَعْدَهُ، وَمَا ذلِكَ إلاَّ لغرابته وعِزَّتِهِ. قال الجُنَيْدُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: عِلْمُنَا هَذَا الَّذِي نتكَلَّمُ فِيهِ، قَدْ طُوِيَ بِسَاطُهُ مُنْذُ عشرين سَنَةً. وإنما نتكَلَّمُ في حَواشِيهِ. وكَانَ أَيْضاً يقولُ: كُنْتُ أُجَالِسُ قوماً سنينَ، يتحاوَرُونَ في علوم لا أَفْهَمُهَا، وَلا أَدْرِي مَا هِيَ. وَمَا بُلِيتُ بِالإنْكَارِ قطُّ. كنت أتقبلها وأحبّها مِنْ غَيْرِ أَنْ أَعْرِفَهَا. وكَان أَيْضاً يقول: كُنَّا نَتَحَاوَرُ مَعَ إِخْوَانِنَا قديماً في علوم كثيرة، ما نَعْرِفُها في وقتِنَا هَذَا. وَلاَ سَأَلَنِي أَحَدٌ عَنْهَا؛ وَهَذَا بَابٌ كَأَنه أُغلِقَ وَرُدِعَ. وقال في القوتِ: قال بعْضُ عُلَمَائِنَا: أَنَا أَعْرِفُ للمُتَقَدِّمينَ سَبْعينَ علماً، كَانُوا يتجاورونَهَا ويتعارفُونَهَا في هذا العلم. ولم يَبْقَ منها الْيَوْم عِلْمٌ واحدٌ. وأَعْرف في زَمَانِنَا هَذَا علوماً كثيرة، مِنَ الأباطيلِ والغُرُورِ، والدَّعاوى ظَهَرَتْ وسُمِّيَتْ عُلُوماً. ثم قالَ: وكَانَ إمَامُنَا سَهْل يَقُولُ: بعد ستة وثلاثمائة: لا يحلُّ أَنْ يُتَكَلَّمُ بِعِلْمِنَا هَذَا، يَعْنِي لِقِلَّةِ أَهْلِهِ. لأنَّه يُحدث قوم يستمعون الخلق، ويتزَيَّنُونَ بِالكَلاَم. يكُونُ مواجدهم لباسهُمْ ومَعْدنِهم بطونُهُمْ. وحيلتهم كَلاَمهُمْ. وقال الأسْتاذ أَبُو القاسم القشيْري رضي اللَّهُ عَنْهُ، في صَدْرِ رِسَالَتِهِ: اعلمُوا رحمكُمُ اللَّهُ، أَنَّ المحققينَ مِنْ هذِهِ الطَّائفة، انقَرَضَ أَكْثَرُهُمْ. لم يَبْقَ فِي زَمَانِنَا هَذَا مِنْ هَذِهِ الطَّائِفَةِ إلاَّ أَثَرُهُمْ. وفِي مَعْنَاهُ قيل:

لاَ والَّذِي حجت قُرَيْشٌ بَيْتَهُ ... مُسْتَقْبِلِينَ الرُّكْنَ مِنْ بَطْحَائِهَا

مَا أَبْصَرَتْ عَيْنِي خِيَامَ قَبِيلَةٍ ... إلاَّ بَكَيْتُ أَحِبَّتِي بِفَنَائِهَا

أَمَّا الْخِيَامُ فَإِنَّهَا كَخِيَامِهِمْ وأَرَى نِسَاءَ الْحَيِّ غَيْرَ نِسَائِهَا

قال ابن العربي الحاتمي رضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قَالَ هَذَا فِي زَمَانِهِ. حيث أَدْرَكَ مَنْ تَزَيَّنَ بِزَيِّ الْقَوْمِ، وخالفَهُمْ فِي بَاطِنِهِم. وأَمَّا الْيَوْمَ فَلاَ خِيَامَ وَلاَ نِسَاءَ. وقال الشيخ أَبُو مَدْيَنَ فِي قصيدته رضي اللَّهُ عَنْهُ:

وَاعْلَمْ بِأَنَّ طَرِيقَ الْقَوْمِ دَارِسَةٌ وَحال مَنْ يدَّعِيهَا الْيَوْمَ كَيْفَ تَرى

وَقالَ فِي الْمَبَاحِثِ:

يَا سَائِلاً عَنْ سُنَنِ الْفَقِيرِ سَأَلْتَ مَا عَزَّ عَنِ التَّحْرِيرِ

إِنَّ الَّذِي سَأَلْتَ عَنْهُ مَاتَ وَصَارَ بَعْدُ أَعْظُماً رُفَاتَا

إِلاَّ رُسُوماً رُبَّمَا لَمْ تَعْفُ وَذَاكَ مَا نَتْبَعُهُ وَتَقْفُ

وَهَبْكَ أَنْ تَظْفَرَ بِالأَوْطَانِ مَا السِّرُّ والمَعْنَى سوى القُطَّانِ

وَكَانَ شَيْخُ شيوخنا سيدي علي العمراني رضيَ اللَّهُ عَنْهُ يقولُ: من شكّ تُونُس، إلى وَادِي نُون، لاَ تَجِد أَحَداً يَتَكَلَّمُ في هَذَا الْعِلْم، إلاَّ رَجُلاً أَوْ رَجُلَيْنِ. كِنَايَة عن قِلَّةِ وُجُودِ المُحَقِّقِينَ. وَلاَ يَدُلُّ هَذَا على انقطاعِهِمْ. في كلِّ زَمَانٍ رِجَال، يَرْحَمُ اللَّهُ بِهِمْ عِبَادَهُ. فَالْعَدَد المعلوم لا ينقطع، حتى ينْقَطع الدِّين. قَالَ فِي لطائِف المِنَنِ: سُئِلَ بَعْضُ الْعَارِفِينَ عَنْ أَوْلِيَاءِ العدد، أَينقصُونَ فِي زَمَنٍ؟ فَقَالَ: لَوْ نَقَصَ مِنْهُمْ واحِدٌ، مَا أَرْسَلَتِ السَّمَاءُ قَطْرَها. وَلاَ أَبْرَزَتِ الأرض نَبَاتَهَا. وَفَسَاد الوقت لاَ يَكُونُ بِذَهَابِ أَعْدَادِهِمْ. وَلا بِنَقْصِ إِمْدَادِهِمْ. ولكن إِذَا فَسَد الْوَقْتُ. كَان مُرَاد الله وقُوعَ اختفائِهِم. فإِذَا كَانَ أَهْلُ الزَّمانِ مُعْرِضينَ عَنِ اللَّهِ. مُؤْثِرِينَ لِمَا سِوَى اللَّهِ. لاَ تنجح فيهم المَوْعِظَةُ، وَلاَ تُمِيلُهُمْ إلى اللَّهِ التَّذْكرة. لَمْ يكُونُوا أَهْلاً لظهُورِ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ فِيهِمْ. ولذلكَ قالوا: أولياءُ اللَّهِ عَرائِس. وَلاَ يَرى العَرَائِس المجرمُونَ. ثم قال: وَقَدْ قَال ﷺ: **«إِذَا رَأَيت شُحًّا مُطاعاً، وَهَوىً مُتَّبَعاً، وإِعْجَاب كُلِّ ذي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ، فَعَلَيْكَ بِخُوَيْصَةِ نَفْسِكَ»**. فسمعُوا قول رسول الله ﷺ فآثروا الخفاء، بل آثرهُ الله لهم مع أنه لأنَّ منهم، أن يكون في الوقت أئمة ظاهرون، قائمون بالحجَّة، لقول رسول الله ﷺ: **«لاَ تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الحَقِّ، لاَ يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ إلى قيام السَّاعة»**. وقال سَيِّدنا عَلِيٌّ كَرَّمَ الله وَجْهَهُ: اللَّهُمَّ لا تُخْلِ الأَرْض مِن قائم لك بحجَّتِكَ. أَوَلئك الأقلُّونَ عَدَداً. الأعْظَمُون عِنْدَ اللَّهِ قَدْراً. قلوبُهُمْ معلقة بالمحلِّ الأعْلَى. أُولاَئِكَ خُلَفَاءُ اللَّهِ في عِبَادِهِ وَبِلادِهِ. آه. آه. أواشوقاه إلى

رُؤيتهم. قُلْتُ: وقد وُجدت هذه الأئمة في زماننا هَذَا. وظهروا ظُهُورَ الشمس في أُفُق السَّمَاءِ على مَن سَبَقتْ لَهُ مِنَ اللَّهِ الْعِنَاية. ثم مَنَّ اللَّهُ علينَا بمعرفتهم وصحبتهم. فوجدناهم من أَهْلِ التربية النَّبَوِيَّة. سالكين الطريق. عارفين بِعَيْنِ التحقيق. سَلَكُوا بِلاَد التجريد. وخاضوا بِحَار التوحيد. داعين إلى اللَّهِ بالهِمَّةِ والحلالِ. عارفين الاصْطِلاَح والمقال. ينهَضُونَ إلى اللَّهِ بِالْحَالِ. ويَدُلُّونَ على اللَّهِ بالمقَالِ. سَلَكُوا مقام الجَذْبِ والْفَنَاءِ. وَرَجَعُوا إلى مقام البقاءِ. قَدْ هَدَى اللَّهُ على أَيْدِيهِمْ الجَمَّ الغَفيرَ. وتخَرَّجَ عَلى أَيْدِيهِمْ خَلْق كثيرٌ. غَيْرَ أَنَّهُ لا بُدَّ للشَّمْسِ من سَحَابٍ. . وللحسناءِ من نِقَابٍ. فَسَتَرَ اللَّهُ سِرَّهُمْ ببَعْض ما يُظهر من بَعْض أَصْحَابِهِم من الأحوالِ الظلمَانية، والأفعال الشيطانية؛ وهم مُبَرَّؤُونَ مِنْهَا. يحذرون دائماً مِن فِعْلِهَا. وكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَراً مقدوراً. وَبِاللَّهِ التوفيق. ولا حَوْلَ ولا قوة إلاَّ بِاللَّهِ العلي العظيم. ثم قال رضي الله عنهُ:

وَمِنْ بَيْنِ أَحْشَاءِ الدِّنَانِ تَصَاعَدَتْ ... وَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا فِي الْحَقِيقَةِ إلاَّ اسْمُ

قُلْتُ: هَذَا هو الصوابُ في اتِّصَالِ هَذَا البيْتِ بِمَا قَبْلَهُ لِلْمُنَاسَبَةِ. ولَعَلَّ النَّاسخ أَخَّرَهُ عَن مَحَلِّهِ. والأحْشاء، جمع حُشْوَة بِالضَّمِّ وهُوَ مَا في البَطْنِ مِنَ الأمْعَاءِ. والدِّنَّان، جمع دَنٍّ، بفتح الدَّال، وشدّ النُّون. وهو فَخَّار كبير، أَسفله رقيق، لا يجلس حتى يحفر لَهُ. ويُقال له الرَّاقُود. يُخْزَن فيه الخمر والخلّ. وأطلقه هُنَا على القلوب، أو الأشباح؛ لأنها أَوَانٍ للخمرة الأزلية. وتصاعد الشيء ارتفع. يَقول رضي اللَّهُ عَنْهُ: قَدِ ارتفعَتْ هذه الخمرة، وتصاعدت من أَجْوَافِ النَّاسِ، ومن بيْن أحشاء الصُّدُور. ولم يَبْقَ منْهَا في حقيقة الأمْرِ، إلاَّ اسْمٌ بِلا مسمًّى. ورَسْم بِلاَ دَارٍ. وكذلك عِلْمُ التصوّف الحقيقي، لم يَبْق منه إلاَّ التشدق بِاللِّسَانِ، مَعَ خَرَاب الجنان، وفي ذلك يقول القائل:

أَهْلُ التصوّف قَدْ مَضَوا ... صَارَ التَّصَوُّفُ مخرفَةْ

صَارَ التصوّف رتعة ... وسَجَّادة مُزَوقَةْ

صَارَ التَّصَوُّفُ سُبْحَة ... وَتَوَاجُداً ومِنطقَةْ

كَذَبَتْكَ نَفْسُكَ لَيْسَ ذِي ... سنن الطريق المُلْحَقَةْ

وفيما تقَدَّمَ قَبْلَ هَذَا كِفَايَة. والبَرَكَة لاَ تنقطِعُ. وبِاللَّهِ التوفيق. ثم قالَ رضيَ اللَّهُ عَنْهُ:

فَإِنْ ذُكِرَتْ فِي الْحَيِّ أَصْبَحَ أَهْلُهُ نَشَاوَى وَلاَ عَارٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ إِثْمُ

قلت: الحيّ: القبيلة. قالهُ فِي القَامُوس. والنشاوى جمع نشوَان، كسَكْرَان، وَزْناً ومَعْنَى. يَقُولُ رضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إذا ذكرت هذه الخمرة، ذكراً حقيقياً بالعلم والحال في قبيلة أو مَدْشَرٍ، أوْ بلد. أصبح أهل تلك القبيلة سُكَارَى وَالهينَ مِنْ ذكر الحبيب، غالب عنهم الجذب إلى الحَضْرَةِ الأزَلِيةِ. لكن بِشرط أَنْ يكُونَ ذاكرها غالباً عليه السكر والجذْب مَعَ طرف مِنَ الصَّحْوِ وأَن يَذْكرها مع أَهْلِها. فَإِنْ كَان كما قلْت، فَلاَ شَكَّ فِي سُكْر أَهْلِ ذلكَ البَلَد. وانجِذَابِهِمْ إلى الحَضْرَةِ. وإشراق أنوارها عَلَيْهِمْ. قلتُ: وقد شهدت هَذَا المعْنَى، حين خَرَجْنَا إلى قبيلة أنجرة والفَحْص، في العام الأول من مُلاَقَاةِ الشيْخ، حيْث كَان السكْر غالباً علينَا، فكُنَّا إذَا بتنا فِي مَنْزِلٍ. يُصْبِح أَهله جلهم سكَارى، يلهجون بذكر الله. وقد رَأَيْت الصبْيان، والرُّعَاة والحرَّاثين يَتْبَعُونَا، وهم يَبْكُونَ. فَمَا كُنَّا نَرُدّهُمْ إلاَّ بِجُهْدٍ جَهِيدٍ. وقد رأَيْتُ في فَحْص طَنجة، أَصْحاب المخزن، وأَرْباب الدَّولة. علقُوا التسابيح، وتابُوا، وتركُوا مَا كَانُوا عليه. فحققنا هذا الأمر الَّذِي ذكره الشيخ عياناً والحمد لله. وقولهُ: وَلاَ عار عليهم.. الخ. تعريف بالخمرة الحِسِّيَّة. فإنَّها فيها الْعَيْبُ وَالإِثْمُ مِنْ قبل الشَّرْعِ. لتغييب الْعَقْلِ وتلفه في الظلمة. فتشغله عن ذِكر اللَّهِ، وعن الصَّلاَةِ بِخِلاَفِ هذه. فإنَّ العَقل يغيبُ في نورِ الحبيب، وبهائه وحسن جَمَاله. ففي تركها الْعَارُ والإِثْمُ، لاَ في تَعَاطيها، كما يأتي عنْدَ قوله:

وقَالُوا شَرِبْتَ الإِثْمَ كَلا وإنَّمَا شربْت التي في تركها عِنْديَ الإِثْمُ

وباللَّهِ التوفيق. ثم قال رضي اللَّهُ عَنْهُ:

وَإِنْ خَطَرَتْ يَوْماً عَلَى خَاطِرِ امْرِىءٍ أَقَامَتْ بِهِ الأَرْوَاحُ وَارْتَحَلَ الْهَمُّ

يقول رضيَ اللَّهُ عَنْهُ: إذَا خَطَرَتْ هذه الخمرة الأزلية؛ وهِيَ الْمَعرفة الحقيقية؛ على قَلْبِ امرىءٍ موَحِّد مُطَهر من الأغيار، سالم من خيالاَتِ صُوَر الآثار. ودَامَ ذلِكَ الخطور، بحيث لاَ تخَلُّلهُ فتورٌ. أَقَامَتْ: أَيْ سَكَنَتْ في ذلِكَ الْقَلْبِ، بِسبب شهودِ تِلكَ الْخَمْرَةِ، الأفراح والسّرور. والابتهاج والحُبُور. وارْتفع عنهُ الأَحْزَان وَالْهُمُوم. بمُشاهدَة الحيّ القيوم؛ لأنَّ تلك الخمرة، هِيَ مَعْرفة الذات الأزلية. على ما يأتي في تفسيرها إن شاء اللَّهُ. وَجَنَّةُ المعارف، أَحْظَى عند العَارفين مِنْ جَنَّةِ الزَّخارِف؛ لأن من دَخَلَ جَنَّةَ المعارف، لَمْ يشتق إلى جنَّة الزَّخَارف. وقال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

أي في الدَّارين. وقال تعالى في الحديث القدسي: «أعددتُ لعبادي الصَّالِحينَ. مَا لاَ عَيْنٌ رَأَتْ، وَلاَ أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلاَ خَطَرَ عَلى قَلْبِ بَشَرٍ». ولم يُقيّدْ ذلِكَ في الدّنيا وَلاَ الآخِرَةِ. فهو حاصل لهم في الدَّارَيْنِ. وأيْضاً: إنَّمَا تطرق الفُهُومُ والأحْزَان، بسبب وجود الإنسَان. وأمَّا مَنْ تحقق له الزَّوال. فَلاَ يرى إلاَّ غاية الكَمَال. مَا تجده القلوب من الأحْزَانِ. فلما منعت من الشهود والعيان. كَمَا قَالَ صاحِب الحِكَم: «أوحى اللَّهُ إلى داود عليه السَّلاَمُ: يا داود، قل للصديقين: بي فَلْيَفْرَحُوا. وبِذِكْرِي فَلْيَتَمَتَّعُوا، أي لاَ يَصْفُو الْفَرَحُ. ولا يكمل النَّعيم. إلاَّ بالنَّظَرِ إلى وجهه الكريم. وَقَالَ تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾. أيْ لا بغيره. ففضل الله معرفته، وَرَحْمَتُهُ: هدايته. وقال الشَّاعر في هَذَا المَعْنَى:

أَنْتُمْ سُرُورِي وأَنْتُمْ مُشْتَكَى أَلَمِي ... وَأَنْتُمْ فِي ظَلامِ اللَّيْلِ أَقْمَارِي

فَإِنْ تَكَلَّمْتُ لَمْ أَنْطِقْ بِغَيْرِكُمْ ... وَإِنْ صَمَمْتُ فأَنتم عِقْدُ إضماري

وقال آخرُ:

إنَّ عِرْفَانَ ذِي الْجَلاَلِ لَعِزٌّ ... وضياء وبَهْجَة وَسُرُورُ

وَعَلَى الْعَارِفِينَ أَيْضاً بَهَاءٌ ... وَعَلَيْهِمْ مِنَ الْمَحَبَّةِ نُورُ

فهنيئاً لِمَنْ عَرَفَكَ إلَهِي ... هُوَ واللَّهِ دَهْرَهُ مَسْرُورُ

وقُلْتُ في تائيتي الْخَمْرِيَّةِ:

فَفِي سَكْرَةٍ مِنْهَا سُرُورٌ وَغِبْطَةٌ ... وَخَيْرُ حَيَاةٍ فِي نَعِيمٍ وَبَهْجَة

وقلت في عينيتي:

ولِي لَوْعَةٌ بِالرَّاحِي إذْ فيهِ رَاحَتِي ... وَرُوحِي وَرَيْحَانِي وَخَيْرُهُ وَاسِعُ

وإنما قَيَّدْنَا كَلاَم الشيخ بِدَوَام خطور تلك الخمرة؛ لأنَّ مطلق الخطور والمرور، لاَ يُوجب دَوَام السّرور، لأن ذلك كبرق سَرَى. فإذَا انْسَدَلَ الحجاب، برفع ذلك النُّور، زال الْفَرَح والسّرور؛ لأن صاحب هَذَا المقام، صاحب تلوُّنٍ. وصاحب التلوين ما زال في السَّيْرِ مَعَ السَّائِرِينَ، والسَّفر قطعة من العذاب، فلا يستريح مِنَ التَّعَبِ، وَلاَ يُفَارِقهُ النَّصب، حتى يصِل إلى مَقَام التَّمكِين. فحينئذٍ يسْكن فسيح الجنان. وتضمحلّ عَنْهُ الْهُمُومُ والأحْزَانُ، كما تقدَّمَ. وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ. ثم قالَ رضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

وَلَـوْ نَـظَـرَ النَّـدْمَـانُ خَـتْـمَ إِنَـائِـهَـا لأسْـكَـرَهُـمْ مِـنْ دُونِـهَـا ذَلِـكَ الْـخَـتْـمُ

قلتُ: النَّدْمَان، يكون مُفْرداً ويكونُ جَمْعاً كَمَا فِي الْقَاموسِ. والْمُرَادُ هُنَا الجمعُ. بِدَليل جَمْعِ الضَّمِير في قوله: لأسكرهم، وهم الجماعةَ التي تتحدَّث على الْخَمْرِ في مَجْلِسِهِ. وَخَتْمُ الإناء: مَا تُسَدّ بِهِ. يقول رضي اللَّهُ عَنْهُ، في تشبيه الخمرةِ الأزلية، بالخمْرَة الحسّية، أو بالرّحيق المختوم في الجنَّة. فإنَّ هذه الخمرة الأزلية، مخزونة في أوانِيها. مختوم عليها بختام الحفظ والصّيَانَة. فلو نَظَرَ القاصدون لشربِها. إلى ذَلِكَ الْخَتْم، لسَكروا قبل الشُّرْبِ. فما بالكَ بالشرْبِ. فما بَالُك بالرّيّ. قلت: وأَوَانِي هذه الخمرة؛ هي: بواطن العَارفين. وخَتْمُها هي ظواهر بَشريتهم. فكُلُّ من قَصَدَهُمْ بِالتَّعْظِيمِ والأدَبِ، ونظر إليه بالخضوع والانكسارِ، والذِّلّة والافتقار. جَازِماً بوجود خصوصيتهم، سَكِرَ لمجَرَّدِ رُؤْيتهم، قبل أَنْ يَأْخُذَ عَنْهُمْ وَيُصْحِبَهُمْ. وقد شهدنَا هَذَا السّرّ من أنفسنَا، ومن أشياخنا. فكثير من الْمُرِيدِينَ، حَصَلَ لهم الجَذْبُ والسّكْرُ، قبل أَنْ يتلقَّوْا الوِرْد، بل لمجرَّدِ الرؤية. وقد رَأَيت بعض النَّصارى بثغر سبته، حين قدِمْنا عَلَيْهَا، لمَّا عَقدنا حلقة الذِّكر. انجذبُوا وتبعونَا إلى منتهَى الحَدّ الّذي بيْنَنا وبيْنَهُمْ. وبَقوْا مَبْهُوتِين واقفين خَلْفَنَا. لما أَشرقَ عليهم من نورُ الخَمْرَةِ. واللَّهُ تَعَالى أَعْلَمُ. قال القطب مَوْلانَا ابن مشيش رضي اللَّهُ عَنْهُ في هذا المعْنَى ـ لمَّا تَكَلَّمَ على المحبَّة ـ فمِنهم من يَسْكرُ بشهودِ الكأس. ولم يَذق بعد شيئاً. فَمَا ظنُّكَ بَعْدُ بِالذَّوْقِ، وبَعْدُ بالشَّرْبِ. وَبَعْدُ بِالرِّيّ. وَبَعْدُ بِالسُّكْرِ بالمشروب. ثم الصحو بعد ذلِكَ على مقادير شتَّى. كما أسكر أيْضاً كذلك. والكَأْسُ: مِغْرفة الحقّ، يُغرف بها ذلك الشراب الطهور الصَّافي لمَن يشاء من عبادِهِ المخصوصينَ من خَلْقِهِ. فتارة يشهد الشارب تِلْكَ الكَأس صورة، وتارة يشهدهامعنوية. وتارة يشهدها علميّة. فالصّورة حظّ الأبْدانِ والأنفس. والمعنوية حَظ القلوب والعقول. والعلمية حَظُّ الأرواح والأسْرَار. فَيَا لَهُ من شَرَاب ما أَعْذَبَهُ؛ فطوبَى لمَن شَرِبَ ودَامَ ولم يقطع عَنْهُ. نسْألُ الله من فَضْلِهِ ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾. وقد تجتمع جماعة من المحبِّبينَ فَيُسْقَوْن مِنْ كَأْسٍ وَاحِدَةٍ. وقد يُسْقَوْنَ من كؤوس كثيرة. وقد يُسْقى الْوَاحد بِكأس وبِكؤوس. وقد تختلف الأشربة حسَب عدد الأكوَاس. وقد يختلف الشّرب من كَأْسٍ واحِدَةٍ. وإن شَرِبَ منْهُ الجَمُّ الْغَفِيرُ مِنَ الأحِبَّةِ. انتهى كَلاَمه رضيَ اللَّهُ عَنْهُ. وقوله: فتارة يشهد الشارب تلك الكأس صورة، أي يشهدها حسّية. ويشرب مِنها خَمْراً حسّياً. على وَجْهِ الْعَادَةِ. ويكون هَذَا في حَالِ البِدَايَةِ

في الجذْبِ الأول. وقد أَخبَرَنِي أَخِي، أنه كَان يجد في فَمِهِ طعم الخمر الحسي. ورائحته الحسية، في جذبِهِ الأول. وتارة يَشهدها معنوية. يعْني يشهد حَلاَوة المعاملة. ولذيل الطاعَة. فيغيب قلبه في حالة الذِّكْرِ. وإن كَان مَسْدوداً عليه الحجاب. وقوله: تارة يشهدها علمية، أي يشهدها بِالْعِلْمِ. والمراد بِهِ عِلْمُ الْوَحدة برَفْع الحجاب. فيسكر في شهود أنوار الحبيب، ثم يَصْحُو مِن سُكره. وقوله: فالصّورة حظ الأبْدانِ والأنفسِ؛ لأنَّ هذه الحالة، تكون لأهلِ البدايات، فأبدانهم كثيفة. ونفوسهم قوية. فلا يؤثر فيهاإلاَّ الشيء المحسوس. وأَيْضاً. من نَوْع الكَرَامَة الحسية، فيتقوَّى بِهَا المبتدىء دون المنتهي. وقوله: والمعنوية حظّ القلوب والعقول. إنما كانت المعنوية حظّ القلوب والعقول؛ لأنَّ هذه الحالة، تكون للمتوسطينَ السَّائرينَ. قَدِ انقلبَتْ مُعَاملتهم البَدَنية. قلبية وعقلية. فلا يسْقَوْن إلاَّ مِنَ المَعَاني اللطيفة، وإن كَانُوا محجوبينَ عن رُؤيَتهم ولكنَّهم مسْتشرفون عَلَيْهَا، قد لاَحَتْ عَلَيْهِمْ أنوارها. وأشرقت عليهم أسرارها. وقوله: والعلمية حظُّ الأرواح والأسْرَار؛ لأنَّ الرُّوحَ والسّرّ هو محلّ الشهود والعلم بالوحدة. فلا تسْقي إلاَّ مِنْ مَادَّة العِلم. فالوحدة، حتى تغرق في عيْن بَحْر الوحدة. وَلاَ تسمَّى روحاً وَلاَ سِرّاً، حتَّى ينكشف عنها الحجاب. وتدخل مع الأحْبَاب. وإلاَّ فيُقال فيها النَّفس والعَقل، والقَلْب. والموضوع واحدٌ. وقد قُلْتُ في هَذَا المَعْنَى من قصيدتي الرَّائيَة: التي أُنْشِدها في الرُّوحِ، وتقلبات أطوارها. فقلت في بَعْضِهَا:

هِيَ النَّفْسُ ثُمّ العَقْلُ وَالْقَلْبُ تَالِيا ... لَهَا الرُّوحُ ثُمَّ السِّرُّ في صَفَاءِ التِّبْرِ[1]

فَإِنْ أَخْلَدَتْ أَرْضُ الْهَوَى وتَظَلَّمَتْ ... فَنَفْساً تُسَمَّى ذَاكَ في أَوَّلِ الأَمْرِ

وَإِنْ عقلت أَيْدِي الْهَوَى بِأَزِمَّةِ ... فَعَقْلٌ بِهِ نِيطَ التَكَلُّفُ بِالأَمْرِ

وإن سَكَنَتْ لِلْخَيْرِ لَكِنْ خَوَاطِرُ ... تُقَلِّبُهَا قَلْبَ السُّفُنِ عَلَى الْبَحْرِ

بِذَاكَ تُسَمَّى الْقَلْبَ مَالِكُ أَمْرَهَا ... بِهِ صَلاَحُ الأَعْضَاءِ في السِّرّ وَالْجَهْرِ

وَإِنْ لَحَظَتْ رُوحُ الْوِصَالِ يَؤُمُّهَا ... وَزَالَ تَعَبُ الحِسّ في سَاعَةِ الذِّكْرِ

فَرُوحاً تُسَمَّى في نَشَاءَةِ أَصْلِهَا ... وَلَكِنْ بَقَايَا الحِسّ تَشْرُقُ لِلْبِرّ

فإنْ صُقِلَ الْمِرْآةُ عَنْ غَبْشِ حِسِّهِ ... فَذَلِكَ سِرُّ اللَّهِ ضُمَّ إلى السِّرّ

انتهى المقصود مِنْهُ.

(1) التِّبْر: قطعة من الذهب أو الفضة، لا زالت على أصلها.

وقوله: وقَدْ تجتمع جماعة.. الخ يعْني. قد تسْقى جماعَة على يَدِ شَيْخ واحدٍ؛ وهُوَ الْمُرَاد بالكَأْسِ. وقولهُ: وقد يُسْقَى من كؤوس كثيرة. أي كل واحد يشرب من واسطة شيْخه. وقوله: وقد يُسْقى الواحد بكأْسٍ وبكُؤُوس. يَعْنِي أَنَّهُ يُسْقَى أَوَّلاً من كَأْسِ شيْخ. ثم يُسْقَى مِن شيوخ أُخْرَى. إِذَا أَذِنَ لَهُ شيْخُه فِي مُلاَقاتهم. وقد يكون للمجذوب نحوُ أَرْبَعِينَ شيْخاً. كلهم عرَف منْهُم. إلاَّ أَنَّ هَذا نادِرٌ. أَوْ يَكُونُ بَعْدَ التَرْشيد. واللَّهُ تَعالى أَعْلَمُ. وقولهُ: وقد تختلف الأشربة، يعني يكون بَعْضها ممزوجاً بالصَّحْوِ؛ وهو الكامل من الشراب، وبعضها يكون جَذْباً صِرْفاً ثم يصْحُو. وبعضه الجذب غالبٌ. وبَعْضُها السلوك غالبٌ. إلى غَيْرِ ذَلِكَ. وَذَلِكَ بِحَسَبِ المشروب. وعلى عدد الكؤوس. وقولهُ: وقد يختلفُ الشُرْبُ من كَأْسٍ واحدة. أي من يَدِ شَيْخ واحدٍ. فيكون الماء واحداً. والزّهر ألواناً. فالخمر واحد، والأواني مختلفة. فبعْضها صَلْبة قوية واسِعَة. لاَ يَغْلبها السُكْرُ. وبعضها رقيقة لطيفة، أو ضيقة؛ أقل شيء يؤثر فيها. والماء واحدٌ وهو الصحو لكمال السَّاقي. واللَّهُ تَعالى أَعْلَمُ. وباللَّهِ التوفيق. وَلاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّة إلاَّ باللَّه العليّ العظيم. ثم قال رضيَ اللَّهُ عَنْهُ:

وَلَوْ نَضَحُوا مِنْهَا ثَرَى قَبْرِ مَيِّتٍ ... لَعَادَتْ إِلَيْهِ الرُّوحُ وانْتَعَشَ الْجِسْمُ

قُلْتُ: النَّضْحُ: الرَشُّ. والثَّرَى: التراب. وانتعشَ: انتهضَ وارْتفَعَ. يقول رضي اللَّهُ عَنه: هذه الخَمْرَة الأزلية؛ وهي الحقيقة الإلَهية لها قوّة عظيمة. وتأثير قوَيٌّ في قَلْبِ الحقائق، وخَرْق العوائد الحسّية والمعنوية. فلو رشَّ أصحابُها منها رشة على قَبْر ميّتٍ، لنَهَضَ وارْتفع من قَبْرِهِ بإذن رَبِّهِ. ويقوى تأثيرها بقدْر تحقيقها. وحصولها في قَلْب صاحِبِهَا. حتى يكون من تحقق بهَا. أَمْرُهُ بِأَمْرِ اللَّهِ. ولذلك كَانَت الأنبياء والرُسُل، تنفعل لهم الأشياء، وتخرق لهم العوائدُ أَكثرَ من غَيْرهم. فكَان سيّدنا عيسى عليه السلامُ، يحيي المَوْتَى، وَيُبْرِئُ الأكَمَه والأبْرَصَ بإذْنِ اللَّهِ. وَكَانَ نَبيُنَا عليه الصَّلاَة والسلامُ يُطعم الجمَّ الغَفِير من صَاع مِن طعام. ويسْقي الجيش الكثيرَ من بين أصَابِعِه الشَّريفة ﷺ. وقد أَحْيَا الموْءُودَة، وخيَّرها فِي الرجوع أو البقاء، فاختارت الرجوع إلى ربّها. وأَحْيَا أَبَوَيْهِ حتى أَسْلَمَا على قَوْلٍ. وَرَدَّ عَيْن قتادة بعد أن انتثرتْ في يدهِ. فكَانَتْ أَحْسَنَ عيْنيْهِ. إلى غَيْرِ ذلكَ مِمَّا لاَ يَنْحَصِرُ. وكرامةَ الأولياء من هذا المَعْنَى متواترة، لا يمكِن حَصْرها. ويحتمل أَنَّ كَلاَم الشيخ، على سبيل المجاز والإشارة. فيُريد بثَرى قَبْرِ الميّت، بشرية الجاهل

أو الغافِل. وبانتعاش روحِهِ: حياتها وارتفاعها بالمعرفة والْعِلْم. أي ولو نَضَحَ العارفون من خَمْرَة هِمَّتِهم على ظاهر من ماتت روحه بِالجَهْلِ والغَفْلَةِ، لحييَتْ وانْتَهَضَتْ إلَى حَضْرَةِ الحقّ. وارتفَعَتْ بالعلم والذِّكْرِ من سَاعتها. وهَذَا الأمر مجرَّب عند أَهْلِ الصِّدقِ. وفي بعض الأثر: «إنَّ لله رجَالاً مَنْ نَظَرَ إليهم سَعِدَ سعادة لا يشقى بَعْدَهَا أَبَداً». وكان الشيخ أَبُو العبَّاس المرسي رضي اللَّهُ عَنْهُ يقولُ: «واللَّهِ مَا بَيْنِي وَبَيْنَ الرَّجُل إلاَّ أَنْ أَنْظُرَ إلَيْهِ وَقَدْ أَغْنَيْتُهُ». وقد شهد له بذلك شَيْخُهُ. فقَال: نِعْمَ الرجلُ أَبُو العباس؛ يأتيه البَدَويّ يَبُول على سَاقَيْهِ. فَلاَ يُمْسِي إلاَّ وَهُوَ وَلِيّ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ. ولقد سمعْتُ شَيْخَنَا البُوزَيْدِي رضيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: إذَا كَانَ الشيخ أَبُو العباس، يُغْنِي بالنَّظْرَةِ. فَلَقَدْ بَقِيَ في زَمَانِنَا هَذَا، مَن يُغْنِي بالنَّظْرَةِ كالشيخ أَوْ أَكْثَرَ. وسمعت شيخه مَوْلاَي العربي رضِي اللَّهُ عَنْهُ يقول: لقد بقي العارفُونَ في زماننا هَذَا، كالشَّاذلي وأَمْثَالِهِ ـ يُشير إلى نَفسه رضي اللَّهُ عَنْهُ ـ وهذا أَمْر شهير عند أَهْلِ الذَّوْقِ وأَهْلِ الصِّدق. كل مَن قَصَدَهُمْ بالصِّدْقِ ربح مِنْ سَاعتِهِ. وحيي بَعْدَ مَوْتِهِ. وهذا الاحتمال عندي أَقربُ، لتحقق هذا الأمر للعارفينَ بخلاف الأول. فإنه مِنْ باب الكرامَة الحسية. وَهُمْ لاَ يلتفتون إلَيْها. وقد لا تَظهَر لَهُمْ. فكم من عارف كاملٍ، أَحْيَا الله على يده الجمَّ الغفير من أموات النُّفُوسِ والقلوب. ولم يظهر على يديه شيء من الكَرَامات الحسّية إلاَّ القليل. كإحياء الموتى الَّذي ذكره الشيخ. وأَيضاً: عِلْمُنَا كُلّه إشارة وأَلْغاز، فَلاَ يُحْمَل على ظاهرِهِ إلاَّ مَن لم يعرف مقصدهم. والله تعالى أَعْلَمُ. ثم قال رضي اللَّهُ عَنْهُ:

وَلَوْ طَرَحُوا فِي فَيْءِ حَائِطِ كَرْمَهَا عَلِيلاً وَقَدْ أَشْفَى لِفَارَقَهُ السَّقَمُ

قلت: الفيْء: ظل الشيء بعد أَن كان شَمْساً. والحائط: البسْتان. وأَشْفَى عَلَى الْموْت. أَشرف عليه. يَقُول رضي الله عَنْهُ: هذه الخمرة الأزلية، لقوَّة تأثيرها تشفي الأسْقام والْعلل. قيل ظهورها من موادهَا. فَلَو طرح عليل، وقد أَشْرَف على الْهَلاك. في ظل بسْتانِ أشجارها قبل أَن تعقَّر بل قبل أَن يظهر عنبُها. لشَغَلهُ اللَّهُ. وَفَارقه السُّقْمُ من سَاعته. وهَذَا يحْتمل أَنْ يكون مُبَالغة في مَدْحِهَا. وأَنَّها لو كانت حسّية.

وجُعل ذلك، لكون الأمْر كَمَا قَالَ. ويحتمل أن يريد به العليل سقيم القلْبِ. وبالحائط، بسْتان العارفينَ. فكل مَنْ دَخَلَ في ظِلّ صحبتهم ومحبّتهم، شفاهُ اللَّهُ مِنْ مَرَضِ قَلْبِهِ، ولو أشرف على الهلاك. بالشكوك والخواطِرِ، والذّنوب

والجرائم. وهذا أيضاً مجرَّب. إذ الْمَرْءُ على دين خليله. ومن تحقق بِجلالةٍ، لا يَخْلُو حَاضِرُوهُ مِنْهَا. وفي الخَبَرِ. «تَعَلَّمُوا اليقين. بمجالسة أهل اليقين». واللَّهِ ما أفلح من أَفْلحَ؛ إلاَّ بصُحْبة مَنْ أَفْلَحَ. وفائدة الصحْبة وثمراتها. أمْر شهير لا يحتاج إلى دليل. وجَرِّبْ. ففي التجريب عِلْم الحقائق. ولابْنِ عَبَّادٍ رضي اللَّهُ عَنْهُ في نَظْمِ الحِكَمِ.

إِنَّ التَّواخي فَضْلهُ لا يُنْكَرُ، وَإِنْ خَلاَ مِنْ شَرْطِهِ لاَ يُشْكَرُ. والشَّرْط فِيهِ أَنْ تُوَاخِيَ الْعَارِفَ، عن الحُظُوظِ واللُّحُوطِ صَارِفاً.

مقاله وحاله سَيَّانِ مَا دَعَوْنَا إلاَّ إلى الرحْمَنِ أَنْوَارُهُ الدَائِمَة السرايَا
فِيكَ وَقَدْ حُفَّتْ بِكَ الرِّعَايَةُ

وقال سيدي إبراهيم التَّازي رضي اللَّهُ عَنْهُ: «زِيَارة أَرْبَابِ التُّقى مَرْهَمٌ يُبْري وَمِفْتَاحُ أَبْواب الهِدَايَةِ والْخَيْرِ. وَتُحَدِثُ فِي قَذْرِ الْخِلِيّ إِرَادَةٍ».

ونَشْرَحُ صَدْراً فَاقَ مِنْ سعَةِ الْوِزْر وَتَنْصُر مظلوماً وتَرْفَعَ خاملا
وتكْسب معدوماً وتُجْبَر ذَا كَسْرِ فَكَمْ خَلَّصَتْ مِنْ لجَّة الإثْمِ فَاتِكا

فأَلْقَتْهُ فِي البَحْرِ والبَرّ. إلَى أَنْ قال:

وَلاَ فَرْقَ فِي أَحْكَامِهِ بَيْنَ سَالِكٍ مُرَبٍّ وَمَجْذُوبٍ وَحَيٍّ وَذِي قَبْرِ
وَذِي الزُّهْدِ وَالعُبَّادِ فَالكُلُّ مُنْعَم عَلَيْهِ وَلَكِنْ لَيْسَتِ الشَّمْسُ كَالْبَدْرِ

ثم قال رضِي اللَّهُ عَنْهُ:

وَلَوْ قَرَّبُوا مِنْ خَانِهَا مُقْعَداً مَشَى وَتَنْطِقُ مِنْ ذِكْرِه مَذَاقَتُهَا الْبُكْمُ

قلْتُ: تقدَّمَ أن الْخَان: هو حانُوتُ الْخَمَّارِ أَوْ دَارُهُ. يقول رضي اللَّهُ عَنْهُ: ولو قرَّبُوْا مَخْبُوساً عَنِ المَشْيِ. مِنْ محل هذه الْخَمْرَةِ الأَزَلية. لانْطَلَقَت رِجْلاَهُ للمَشْي سَريعاً. قَبْلَ الْوصُول إلى مَحِلِّهَا. فَمَا بالُكَ لَوْ دَخَلَ خَدنَهَا أَوْ شَرِبَ مِنْهَا. وكذلك لو ذكرت حَلاَوة مذاقتها عِنْدَ الأبْكَم. لنَطقَ سريعاً مِن بَرَكَةِ ذِكْرِهَا. فَمَا بالُكَ لَوْ ذَاقَها بِلسانِهِ. وهَذَا الَّذِي ذَكَر، يَحْتَمِل أَنْ يَكُونَ حقيقةً، فإنَّ في كَراماتِ الأولياء، مثل هذا أو أكثر. كقصَّة الجارية التي كانَتْ مقعدة سِنينَ. فلمَّا بات عند أَهْلها رجل صالح تَوَسَّلَتْ بِهِ. فقامَتْ مِنْ حينها. إلى غَيْر هَذا مما يظهر على يَدِ الأولياء، من الكَراماتِ الحسية. ويحتمل أن يكون مجازاً. فيكون المراد بالمُقْعَد؛

مَن حُبِسَ عن الخَيرَات. وأقعده الكسل على الطَّاعاتِ. وحَبَسْتُهُ الشهوات، عن النهوض إلى المقاماتِ. فإذا قرب من أَهْل هذه الخمرة؛ وهم العارفُونَ، انطلقَتْ قيودُهُ. ونشط إلى السَّيْر ظاهراً وباطناً. ويكُون المراد به الأبكم: مَنْ أَخْرصته الْغَفْلة، وعقد لسانَهُ الجهْلُ والبِدْعةُ. فَلاَ ينطق إلاَّ بما لاَ يَعْنِي. وَلاَ يتكلَّم إلاَّ فِي الحسِّ فإذا صحب العَارفينَ، تَجَوْهَرتْ نَفْسهُ. وانطلقَ لسَانُهُ. فيتكلَّمُ بالحِكَم والْعُلُوم اللَّدُنية. وفي الخَمَارِ: «مَنْ زَهِدَ في الدُّنْيَا أَرْبعينَ يَوْماً. نطق بِالحِكْمَةِ» أَوْ كما قَالَ. وقال أَبُو سليْمَان الدَّاراني رضي اللَّهُ عَنْهُ: إذَا ابْتَعَدَتِ النَّفُوس على تَرْكِ الآثام. جَالَتْ فِي الملكوتِ. ثم رَجَعتْ إلى صاحِبِهَا بطرائف العلوم. مِنْ غَيْر أَن يُؤْذِيَ إليها عالمٌ عِلْماً. ثم قال رضي اللَّهُ عَنْهُ:

وَلَوْ عَبِقَتْ فِي الشَّرْقِ أَنفاسُ طِيبِهَا وَفِي الْغَرْبِ مَزْكُومٌ لَعَادَ لَهُ الشَّمُّ

قلت: عبقت الريح: إذا هبَّتْ وقال في القاموس: عَبِقَ عَبْقاً وعباقة: برق. وَلاَ يُنَاسِب هُنَا. والأنفاسُ جمع نَفَسٍ بالتحريكِ وَهُوَ الرّيحُ. يقول رضي اللَّهُ عَنْهُ: لَوْ هَبَّتْ أَنفَاس طيبِ هذه الخمرةِ الأَزَلية مِنَ المَشرقِ. وفي المغربِ مَزْكُومٌ أي مَريضٌ بِالزُّكام. وهو الَّذي لاَ يَشُمُّ شيئاً. ثم وصَلَتْ إليهِ أَنْفَاس تلك الخمرَة؛ أيْ نسميها الطيبَ، لعادَ لَهُ الشَّمُّ. صَارَ صحيحاً من بَرَكَةِ طيبَها. وقوة ذكَائِهَا. وهذا يحتمل أيْضاً. أن يكُونَ على ظاهرِهِ. مُبَالغَة في مَدْحِ نَسِيم هذه الخمرة. لو ظَهَرَ للحسّ ويحتمل أن يكون المراد بالمزوكوم. مَنْ لا يشمُّ شيئاً من رائحة الخصوصية. مريض بالإنكَار على أَهْلِهَا. فإنَّهُ لو تَوَجَّهَتْ إليه هِمَّتُهُمْ، وَعبقت أنفاس خَمْرتهم نحوه. وَلو كان بعيداً منهمْ فِي المسافات؛ لزَالَ عنْهُ الإنْكَارُ. شَمَّ رائحة الوِلاَية عَلَيْهم، وبَادَرَ إلى صحبتهِمْ وخِدْمَتهَمْ، حتى ينخَرِط فِي سِلْكِهِمْ، ويجلس على بِسَاطِ الْقُرْبِ والمؤانسة في مجلسهم. واللَّهُ تعالى أَعْلَمُ. ثم قال رضِي اللَّهُ عَنْهُ:

وَلَوْ خُضِبَتْ مِنْ كَأْسِهَا كَفُّ لامِسٍ لَمَا فَلَّ فِي لَيْلٍ وَفِي يَدِهِ النَّجْمُ

قلتُ: خُضِبَتْ كفّه: لوّنَها بِالخَضيبِ. ولمسه يلمِسهُ ويلمَسهُ: مسَّهُ بيَدِي. وَفَلَّ يَفِلّ بالكسر والفتح. ضاع وتلف. قال فِي القاموسِ. يقول رضي اللَّهُ عَنْهُ: لَوْ خُضِبتْ مِن كَأْسِ هذه الخَمْرة الأزلية كفّ. مَن مسَّها لأشْرَقت يده، وصَار نَجْماً يُهْتدى بِهَا في ظلمة البَرّ والبَحْرِ. وتصير يده، كيَدِ سَيِّدنَا موسى عليه السلامُ، حينَ ضَمَّها إلَيْهِ. فإذا سَار في الليل، اهتدى. فلا يضلُّ عن الطريق. كَمَن في يدهِ نَجْم

يُضيء له الطَّريق. وهذا أيضاً يحتمل أن يكون على ظاهره، مبالغة في تأثرها فِي خرق العَوائِد الحسّية. ويحتمل أن يريد بخضب الكف منها، مُبَاشرتها للقلب. واتصالها بِهِ. فإنها لو توقَفت إليه، لأضَاءَ له نُورٌ يهتدي به. في حل مشكلات بَرّ الشرائع. وغوامض تَجرّ الحقائق. فلا يضلّ في سيره إلى عَيْن التحقيق. وفي قلبه هذا النّور العظيمُ. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا﴾. أي نوراً يُفَرّق بيْن الحق والباطل. وفي كَلاَم الشيخ أبي الحَسَن الشاذلي رضي اللَّهُ عَنْهُ، ما يُوَافق هذا الاحتمال؛ أعني: إطلاقَ الحسّ على وصول علم الحقيقة إلى القلب. فإنه قال: المحبَّةُ: آخذة مِنَ الله، قلْب عبْده، عن كُلّ شيْءٍ سِوَاكَ. فترى النفس ملائكة متحصّنَة بِمَعْرِفَتِهِ. والرّوح آخِذة فِي حضْرَتِهِ. والسرّ مغموراً في مشاهدتهِ. والعبد يسْتزيد من حُبّه. فيزيد، ويفاتح بما هو عَذْب مِنْ لذيذِ مُنَاجَاتِهِ. فيكسى حلل التقريب. على بِساط القربة. وَيَلْمس أَبْكَار الحقائق، وثَيِّبات العلوم. المراد منك. فأطلق المَسَّ على وُصُول العِلم إلى الْقَلْبِ وجعل عِلْمَ الحقائق كَالأبْكَار. وعلم الشرائع كَالثيبات. لصعوبة إدراك الأول دونَ الثاني. إذ قَدْ يُدركه مَنْ لاَ خَلاَقَ لهُ من العصاة، وقُضَاة الجُور. واللَّهُ تعالى أَعْلَمُ. ثم قال رضي اللَّهُ عَنْهُ:

وَلَـوْ جُـلِـيَـتْ سِـرّاً عَـلَـى أَكْـمَـهٍ غَـدَا  بَـصِـيـراً وَمِـنْ رَاوُوقِـهَـا تَـسْـمَـعُ الـصُّـمُّ

قلْتُ: جُلِيَ الأمْرُ بالبِنَاءِ لِلْمَفْعُول: كُشف وانجلَى. والأكْمَهُ: الَّذِي وُلِد أَعْمَى. والرؤوق: لم يذكره في القاموس بالهَمْزِ. وإنما ذَكَرَهُ بالْوَاوِ فقال: والرَّاووقُ: المُصَفَّات؛ أي الخَمر المُصَفَّات والباطنة. وخمر: الشراب الذي يروق بِهِ والكَأسُ. إلاَّ أنَّ قَلْبَ الواو هَمْزَة جَائِزٌ. كَأُقِّتَتْ، ووقّتَتْ. وقال أيضاً: والروق: الإعجاب به لشيء وقدراته: أعجبهُ، والصُّمُّ جَمْع أصَمّ. يقول رضي اللَّهُ عَنْهُ: لَوْ كُشِفَتْ هَذه الخَمْرَةِ الأزَلِية، وأظهرت سرّاً على رَجُل خُلِقَ أَعْمَى، لَغَدا، أيْ مَاتَ بصيراً من سَاعَتِهِ. كما كَان ذلِك لسيّدنا عِيسَى عليه السلامُ. ولغيْرِهِ مِنَ الأوْلياءِ. فإن قُلْتَ: كَشْفُهَا يقتضِي الإظهار والجَهْرَ؛ وهو يُنافِي في قوله سِرّاً. قُلْتُ: هذه الخمرة الأزلية؛ هِي معانِي لطيفة غَيْبية. فإظْهارها لعَالَم الشَّهَادَةِ، هو كَشفُهَا وجلاؤهَا. وَلاَ شَكَ أَنَّ بُرُوزهَا لعالم الشهادة، يكُون سِرّاً، ويكُون جَهْراً. فَعَبَّر النَّاظم بالسّرّ مُبَالغَة. ليكُون الجَهْرُ أَوْلَى. أي فَلَوْ بَرَزَتْ مِنْ عَالَم الغَيْبِ، إلَى عَالَم الشهادة سِرّاً. لعادَ الأكْمه بصيراً. حتى يُبصر أنوارها. ويُشاهد أَسْرَارهَا. فَمَا بالُكَ

لَوْ بَرَزَتْ جَهْراً. ومِنْ حُسْنِ صَفَاءِ هَذِهِ الْخَمْرَةِ، وجودة جوهريته. تُسْمع الآذان الصُّمَّ، أي تصير سَامعة، بعد أَنْ كَانَتْ صَمَّاء. أو من الإعجابِ لحسنِها، وحسْن الثياب علَيْهَا، تصير الآذَانُ الصُّمُّ سَامعة. فتسمَعُ تلك المحاسنَ. بعد أَنْ كَانَتْ صُمًّا؛ وَهَذَا أَحْسَنُ. ويحتمل أَنْ يريد بالأكمه. أَعْمَى البصيرة. فإذا صحب أَهْل هذه الخمرة، وكَشفوا لَكَ شَيئاً مِنْ حُسنها وبهجتها. انفَتَحَتْ بصيرتُه، وصارَ عَلَى بيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ. وأن يريد بالصُّمّ؛ الذي تَنْفَعُهم الموعظة، وَلاَ تنهج فيهم التذكرة، فإذا سَمِعُوا مِنْ أَهْل هذه الخمرةِ شيئاً، مِنْ صفاءِ المَوْعظةِ. وحُسْن التَّذكِرة. انكَفّوْا وانزجَرُوا. وقيلُوا مَا سَمِعُوا. وصارُوا: من ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥ﴾. واللَّهُ تعالَى أَعْلَمُ. وبِاللَّهِ التوفيق. وهو الْهَادي إلى سواءِ الطريق. ثم قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

وَلَوْ أَنَّ رَكْباً يَمَّمُوا تُرْبَ أَرْضِهَا وَفِي الرَّكْبِ مَلْسُوعٌ لَمَا ضَرَّهُ السُّمُّ

قلتُ: الرَّكْبُ جمع رَاكبٍ، كَصَحْب وصاحب. وقيل: لاَ مُفْرَدَ لَهُ مِنْ لفظِهِ وتَيَمَّمَ: قَصَدَ. والملسوعُ: الملْدُوغ من الحيَّة أَوِ العَقْربِ، والسُّم مثلث: السّين: الشيْءِ القاتل. يقول رضِي اللَّهُ عَنْهُ: لَوْ أَنَّ جَمَاعة قصدوا تُرْب هذه الخَمْرة. التي تُنْبت كَرْمها. وفي الرَّكْب مَنْ لسَعته الحيَّةُ أو العَقرب، لمَا ضَرَّهُ سُمّ ذلِكَ اللَّسْع، حيْث قَصد تُرْب هذه الخمرة. فَمَا بالُكَ لَوْ وصَلَ إِلَيْهَا. أَوْ أَخَذَ شيئاً مِنْ تُرَابِهَا. أَوْ رماه على ما لُسِعَ مِنْهُ. ويحتمل أن يُريد بالمَلْسُوع، مَنْ لَدَغَتْهُ الشهوات والمَعَاصِي. فَإِذَا كَانَ مَعَ قَوْم قَاصِدِينَ الوصول إليها. أَوْ إلى مَحَلّها. فَلاَ يضرهُ الوقوع في شيْءٍ منهَا. إذ بَرَكَةُ صُحْبتِهم تُذْهب عنه الإضرار. وتُزْعِجُهُ إِلَى الإقلاعِ. وقد تَقَدَّمَ الكَلاَمُ على الصّحْبَة وثمرتها. وقال بَعْض العُلَمَاءِ: مَنْ قَصَد زيادة صالح، لا يكْتَب عليه مَلَكُ الشمال شيئاً. ما دَامَ في زيارته. ولعله وقف على حديثٍ فِي ذلكَ. واللَّهُ تعالى أَعْلَمُ. ثم قال رضِي اللَّهُ عَنْهُ.

وَلَوْ رَسَمَ الرَّاقِي حُرُوفَ اسْمِهَا عَلَى جَبِينِ مُصَابٍ جُنَّ أَبْرَأَهُ الرَّسْمُ

قلت: الرَّاقِي؛ هو المعوّذ. قال في القاموس: الرُّقية بِالضّمّ: العَوْذَة. والجمع رُقًى. ورقاهُ رقياً. ورقياً ورقية؛ فهو رقَّاء. نَفَثَ فِي عَوْذَتِهِ هـ. والجبينُ: قال في القاموس: والجبينَانِ حرفان لكشف الجبْهَة من جَانبيْهَا، فيما بيْن الحَاجِبَين. مصعداً إلى قصاره الشَّعر. أو حروف الجبْهةِ. مَا بيْن الصُّدْغيْن، متصلاً

بحذاء النَّاصية. كله جبينٌ هـ. وجُنَّ بالضَّمّ: جُناً وجِناً وجنوناً. واسْتُجِنَّ مَبْنيًا لِلمَفْعُولِ. أَيْ أَصَابَهُ الجنُونُ؛ وهو من الأفْعَال اللاَّزمَة للبناءِ للمَفْعُولِ. لكَلّ دمُه: أي هَدَرَ وَزُهِيَ: أي تكبَّرَ. وعني بحاجتِهِ. فهذه الأفْعَال لم يُسْمع فِيها البناء للفاعل. وأبرأه الله: شفاهُ.

يقول رضي اللَّهُ عَنْهُ: لَو رَسَم الكاتب المُعَوّذ، حروف هذه الخمرَة الأزلية، على جبين مصاب، أصَابَهُ الجُنُون، لأبْرَأه ذلِكَ الرَّسْمُ من سَاعَتِهِ. وحُرُوف هذه الخمرة هي حُرُوف اسْمِ الجلالة: فلو كتبها العارف على مجنونٍ. بحضور يهمّه، لبَرِيءَ المصابُ من حِينه إن شاءَ اللَّهُ تَعَالَى. وكذا مَن جُنّ قَلبُه بالخواطِرِ الشيطانية. والشكوك الوهمية. إذا لَقَّنَهُ العارف هَذَا الاسْمَ، وَرَسَمهُ له فِي قَلْبِهِ، لتَبرِيءَ مِنْ حينهِ، وَصَارَ مِنْ أَهْلِ اليقِين التامّ. والطُّمأنينة الكُبْرى. واللَّهُ تعالى أَعْلَمُ. ثم قال رضيَ اللَّهُ عَنْهُ:

وَفَوْقَ لِوَاءِ الجَيْشِ لَوْ رُقِّمَ اسْمُهَا ... لأسْكَرَ مَنْ تَحْتَ اللِوَا ذَلِكَ الرَّقْمُ

قلت: اللواء بالمدِّ: العَلَمُ. ويُجْمع على أَلْوية. وَجَمْعُ الجمع ألْوِياتُ. والجيشِ: الجُنْدُ. أو السائرون لحرب أو غيرها ورقمَ: كَتَب. والمِرْقَمُ بِكسْر الميم: القَلَمُ، والرَّقم: الكتابة والتخطيط. يقول رضي اللَّهُ عَنْهُ: لَوْ كتب اسْم هذه الخمرة الأزلية. وجُعل فَوْق عَلَم الجيْش لأسْكَر ذلِك الرَّقم. كُلَّ مَن تَحْتَ ذلِكَ اللواءِ. وصاروا كلهم نَشَاوَى مِن خَمْرَة المَحبَّة. فيذلون نفوسهم في مَرْضاتِ محبوبهم. اختياراً مِنْهُم. فهذا كلهُ مبالغة في هذه الخمرة. وتشويق إليْهَا. وقَدْ أشرْتُ إلى شَيْءٍ من ذلِكَ في تائيتي فَقُلْتُ:

فَيَا لَهَا مِنْ نَشوَى لَوْ هَبَّ نَسِيمُهَا ... عَلَى قُبُورِ الأمْوَاتِ أَحْيَتْ بِسُرْعَةِ
وَلَوْ عَبَقَتْ أَنْفَاسُ طِيبِهَا فِي الْوَرَى ... لأضْحَوْا سُكَارَى بالجميع فِي لحْظَةِ
وَلَوْ بِيعَتِ الأرْوَاحُ فِي قَبْرِ حَانِهَا ... لَكَانَ لَهَا بَيْعاً رَخِيصاً بِصُفْقَةِ
فَهِمْ وتَنزَّهْ فِي كَمَالِ جَمَالِهَا ... وَلاَ تَسْرِفْ بِغَيْرِ الْحَبِيبِ بِنَظْرَةِ

وَباللَّهِ التوفيق. ثم ذَكَرَ ثَمَرَةَ هذه الخَمْرَةِ، ومَا ينشأ عَنْهَا فِي الْبَاطِنِ فَقَالَ:

تُهَذِّبُ أَخْلاَقَ النَّدَامَى فَيَهْتَدِي ... بِهَا لِطَرِيقِ الْعَزْمِ مَنْ لاَ لَهُ عَزْمُ
وَيَكْرُمُ مَنْ لَمْ يَعْرِفِ الْجُودَ كَفُّه ... وَيَحْلُمُ عِنْدَ الْغَيْظِ مَنْ لاَ لَهُ حِلْمُ

قلْتُ: هَذَّبَ الشيْءَ: نَقَّاهُ وأَخْلَصَهُ، وصفَّاهُ وأَصْلَحَهُ. قاله فِي القَامُوسِ.

والأخلاق جمع خُلق؛ وهو ما جُبِلَ عليه الإنسان، حَسَناً أَوْ قَبيحاً. والنَّدَامَى جَمْع نَدِيم: وهو: المُنَاجِي لصاحِبِه. في مجلس الخمر أو غيْرِهِ. أطلقه هُنا على الشَّارب. ويُكْرم بِضَمّ أَوَّلِهِ. وكَسْر ثانيه. مضارع أكرمَ. والحِلْمُ: الأناةُ والعقل. قالهُ في القاموس. والأَنَاة بفتح الهَمْزَة: الرَّزَانة والتأني. وحَلُمَ بالضمّ، حُلُماً: عَفَا وأَصْفَحَ وَلَمْ يُعاجِلْ. وتحلف: تكلف. يقول رضِي اللَّهُ عَنْهُ: إنَّ هذه الخَمْرَة، تتقي وتخلّص أخْلاَق الشَّارِبينَ لَهَا. فَتُبَدّل الأخْلاَق السَّيّئَةَ بِالْحَسَنَةِ. فَتبدّل الكَسَلَ بالنَّشَاطِ؛ وخِفَّة الأعْضَاءِ. حَتَّى يهْتَدي لطريق العَزْمِ على البِرِّ والتَّقوى. مَنْ لاَ عَزْمَ لَهُ عَلَيْها. وتُبدّل الشّحّ والبُخْل بالكَرَم، والسّخاء. حتَّى يصيرَ مَنْ لاَ يَعْرف السَّخَاءَ أضلاً، أَسْخَى النَّاس، وأَكْرم الناس. تبدّل الغَضَب والحقد والعجلة والبطش، بِالْحِلم وسَلاَمَة الصَّدْرِ، والسكينة والتأني والرَّزَانة. وتبدّل الخوف والجَزعَ والهَلَعَ، بالشَّجَاعَةَ واليَقِينَ، والغِنَى بِاللّهِ. وتبَدّل الشكَّ والاضطراب بالطَّمأنينة والسّكون. وتُبدّل كثرة التدبير والاختيار، بالرّضَى والتسليم، والسكون تَحت مَجَارِي الأقدَار. وتبدّل التكَبُّرَ وحبّ الرّفعةَ، والجاه والرياسة، بالتواضع والسكينة، والخمول وحبّ السُّفليات. دُونَ العلويات. وتبدّل حبّ الدّنيا والحِرْص والطّمَع، بالزّهْدِ والقَنَاعَة والْوَرَع. والغِنَا باللَّهِ دُونَ شَيْءٍ سِوَاهُ. وتبدّل تعظيم الأغنياء والحلف لهُمْ. بالإعْرَاضِ عنهم والزُّهْد فيهم. والتيهِ عليْهم. اكتفاءً بِعلم اللَّهِ. وتُبَدّل تحقير الفقراءِ، وتصغيرهم، بتعْظيمهم ورفعتهم، والدّنوّ منهم. والحبّ لهُمْ. إلى غيرَ ذلكَ ممَّا لاَ يَنْحَصِر حتَّى قال بعْضَهم: «للنَّفْس مِنَ النقائص. ما للّهِ من الكَمَالاَتِ». فتنقلِب جُلّ تلك النَّقائص كَمَالاَت. وَلاَ يَلْزَمُ مِنْ ثبوت الخُصُوصِية. بمدَح وَصْفِ البشرية. إذْ لَوْ كُنْتَ لاَ تَصِلُ إلَيْهِ إلاَّ بَعْدَ مَحْوِ مَسَاوِئك، وَمَحْوِ دَعَاوِيكَ، لاَ تَصِل إلَيْهِ أَبَداً. ولكن إذَا أَرَادَ أَنْ يوصلك. غَطَّى ووصَفَكَ بِوَصْفِهِ، ونَعْتَكَ بنَعْتِهِ. فَوَصَّاكَ بِمَا مِنْهُ إلَيْكَ. لاَ يَمَد مِنْكَ إلَيْهِ. وباللّهِ التوفيق؛ وهو الهَادِي إلى سواءِ الطريق. ثُمَّ قال رضِي اللَّهُ عَنْهُ:

وَلَوْ نَالَ قَرْمُ الْقَوْمِ لَثْمَ قِدَامِهَا لأكْسَبَهُ مَعْنَى شَمَائِلِهَا اللَّثْمُ

قلت: نال الشيْء: أعطيه وأخذهُ. والقَرْمُ: السَّيّدِ. وقَرْمُ القوم سيّدهُمْ. واللّثْمُ: التقبيل. لثَمَ. كَضَرب وسمع، واللثام، كَكِتاب: ما عَلَى الْفَمِّ مِنَ النقابِ، والشَّمَائِل، جَمْعَ شَمَال بالفتح بِمَعْنَى الطَّبْع. يقول رضي اللَّهُ عَنْهُ: لو نَالَ سيّد القَوْمِ وكبيرهم، تقبيل لثام هذه الخمرة، وشَمَّ شيئاً مِن عِطْرها لأكسَبَه ذلكَ اللَّثم،

معنى طبائعها الحسنة. فتهذّب أخلاقَهُ، وتُزين أشكاله، فَيَصيرُ حَليماً، كريماً، رحيماً، شفيعاً مُتواضِعاً، سَهْلاً ليّناً، إلى آخر ما تقدم من الأخلاق وتقلّب التي تكسبها، لمن تحقق بِهَا. وإنما كَانَت الخمرة تهذّب الأخْلاَق، وتقلّبُ الأعْيَان؛ لأنها نتيجة ذِكْر اللّهِ. وَلاَ شَكَّ أَنَّ ذِكْرَ اللّهِ الْحَقِيقي يُهَذّب صاحِبَه، ويخلّصُهُ. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ أي أكْبَرُ مِنَ الصَّلاةِ، في النَّهْي عَنِ الْفَحشاءِ وَالْمُنْكَرِ. وَهَذَا أَمْرٌ مُجَرَّبٌ. قَدْ تَحَقَّقْنَا بِهِ وَرَأَيْنَاهُ والحَمْدُ لِلّهِ. ولَيْسَ الخَبَرُ كالْعَيانِ وإنَّما خَصَّ قَرَمَ الْقَوْمِ بِهَذَا الأمْرِ، لأنَّهُ أَخوج إلَى التَّهْذِيبِ مِنْ غَيْرِهِ؛ لأنَّ السِّيَاسَةَ لاَ تَلِيقُ إلاَّ بأَهْلِ الْحِلْمِ وَالصَّبْرِ. والتَّأَنِّي والسكينَة. وإلاَّ فسَدتِ الرَّعية. أَوْ تَعِبَتْ. وباللّهِ التوفيق. ثم قال رضيَ اللّهُ عَنْهُ:

يَقُولُونَ لِي صِفْهَا فَأَنْتَ بِوَصْفِهَا ... خَبِيرٌ أَجَلْ عِنْدِي بِأَوْصَافِهَا عِلْمُ

يقول السَّامعُونَ لي: صِفْ لَنَا هَذِهِ الخمرة التي شَوَّقْتَنا إلَيهَا، وبَالَغْتَ فِي مَدْحِهَا فَقَالَ لَهُمْ: أَجَل، أي نَعَمْ. عِنْدِي بأوصافها ونُعُوتها، عِلْمٌ وتحقيق، ثم وَصَفَها لَهُمْ فقال:

صَفَاءٌ وَلاَ مَاءٌ ولُطْفٌ وَلا هَوَا ... وَنُورٌ وَلاَ نَارٌ وَرُوحٌ وَلا جِسْمُ

تَقَدَّمَ كُلَّ الْكَائِنَاتِ حَدِيثُهَا ... قَدِيماً وَلاَ شَكْلٌ هُنَاكَ وَلا رَسْمُ

وَقَامَتْ بِهَا الأَشْيَاءُ ثُمَّ لِحِكْمَةٍ ... بِهَا احْتَجَبَتْ عَنْ كُلِّ مَنْ لاَ لَهُ فَهْمُ

يقول رضي اللّهُ عَنْهُ في وصْفِ الخمرَة الأزلية، والذّات المقدّسة الأصلية. هي ذات موجودة. خفية لطيفة، كَلُطْفِ الْهَوَاءِ وَلا هَوَاءَ لَهَا صَفاء كصفاءِ الماءِ، وَلاَ مَاءِ نورانية كَنُور النَّار وَلاَ نَارُ. رُوحانية كروحِ الأجْسَامِ وَلا جِسْمُ. أي متصفة بالحياة الأصْلية القديمَة. وقد تَقَدَّمَ حديثها أي نعوتها ووجودها كُلَّ الكَائنات: لأنَّ وجودها قَدِيمٌ أزلي. لَمَ يكُن هُناكَ جِرْم صغير وَلاَ كبيرٌ. فالأجرام الكبيرة، كالعَرْشِ والكُرْسِي، والسماوات والأرض، شبيهة بالرّسوم، أي الحروف. والأجْرَامُ الصَّغيرةَ، كالمَلائكة والجِنّ والآدمِي وسَائر المخلوقات الرقيقة، كالأشكال لتلك الحُروفِ. وَلاَ شَكَّ أَنَّ فَائدة الرُّسُومِ والأشكال، هي قَبْض المعاني مِنْهَا وفَهْمُها. فإذَا قبضت المعْنَى اسْتُغْنِيَ عَن الرُّسُومِ ومُحِيَ. كَذَلِكَ الكَائِنَات، ما نُصِبَتْ إلاَّ لتُرَى فِيها مَوْلاَها. فإذَا عَرَفْته. طاحَتْ تلك الرُّسُومِ والأشكال. وَلاَ يَبْقَى إلاَّ الكبيرُ المتعال. وأنْشَدُوا:

وَطَاحَ مَقَامِي فِي الرَّسُومِ كَلاَمُهَا فَلَسْتُ أَرَى فِي الْوَقْتِ قرباً وَلا بُعْدَا
فَنِيتُ بِهِ عَنِّي فَبَاتَ بِهَا غَيْبِي فَهَذَا ظُهُور الحقّ عِنْدَ الْفَنَا قَصْدَا
أَحَاطَ بِنَا التَّعْظِيمُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ وَعَادَتْ صِفَاتُ الحقّ مِمَّا يَلِي الْعَبْدَا

وفي الحديثِ الصَّحيح: «كَانَ اللَّهُ وَلاَ شَيْءٍ مَعَهُ». زَادَ بَعْض المحققين: وهو الآن عَلَى ما عَلَيْهِ كَانَ. وفي حَدِيث التِّرمذي، عن أبي رُزَيْنٍ العُقَيلي: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ: «أَيْنَ كَانَ رَبُّنَا قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ خَلْقَهُ؟» قال: «كَانَ فِي عَمَدٍ مَا فَوْقَهُ هواء. وَمَا تَحْتَهُ هواء». قُلْتُ: العَمَد هو الخَفَا. قال تعالى: ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ﴾. أي خفيت. أي أَنَّ الحقَّ تعالى؛ كَانَ فِي خَفاءٍ ولطافة؛ لاَ يُدْرَكُ ولاَ يُعْرفُ. أيْ كَان خفيّاً لطيفاً. لَيْسَ فَوقهُ هواء. وَلاَ تَحْتَهُ هَوَاءٌ. بَلْ عَظَمَتُهُ أَحَاطَتْ بِكُلِّ فَوْق، وبكُلّ تَحْت. وبكل هَوَاء. وَلاَ فَوْق وَلاَ تَحْتُ، وَلاَ هَوَاء. وإنمَا الوجود للْعَليِّ الأعْلَى فِي الأزَلِ، وفيما لا يَزَالُ. وقيل لسيّدنا عليّ كَرَّمَ اللَّهُ وَجهَهُ. يَابْنَ عمّ رَسُول اللّهِ، أَيْن كَانَ رَبُّنَا؛ أَوْ هَلْ لَهُ مَكَان؟ فتَغَيَّرَ لَوْنَهُ وَسَكَتَ سَاعة. ثم قال: قَوْلكم أَيْن الله. سؤال عن مَكانٍ. وَكَانَ اللَّهُ وَلا مَكَانَ. ثمَّ خَلَق الزَّمانَ والمَكَانَ؛ وهُو الآن كَمَا كَانَ. دُونَ زَمَانٍ وَلاَ مَكَانٍ. وسُئِلَ أَبُو الحسَن النُّوري فِي محنة الصوفية. أَيْن اللَّهُ مِن مخلوقاتِهِ. فقال: كَانَ اللَّهُ وَلاَ أَيْنَ. والمخلوقات فِي عَدَم. فكَان حَيْثُ هُوَ. وَهُوَ الآنَ حيْث كَانَ. إذْ لاَ أَيْنَ وَلاَ مَكَانَ. وفِي بَعْضِ الأخْبارِ: «كُنْتُ كَنْزاً لَمْ أعْرَفْ فأَحْبَبْتُ أَنْ أُعْرَفَ. فَخَلقْتُ الخَلْقَ فَتَعَرَّفْت لَهُمْ. فَبِي عَرَفُونِي». وَقَوْلُهُ. وقَامَتْ بِهَا الأشياء. يَعْنِي أَنَّ الخمْرَةِ الأزَلية؛ أَظْهَرَت أَنْوَارَهَا. وأَبْرَزَتْ حُسْنَهَا وَجَمَالَهَا فِي مَظَاهِرِ الأشْيَاءِ، كَمَا قَالَ صاحِب الْعَيْنية:

تَجَلَّى حَبِيبِي فِي مَرَائِي جَمَالِهِ فَفِي كُلِّ مَرْأَىً لِلْحَبِيبِ طَلاَئِعُ
فَلَمَّا تَبَدَّى حُسْنُهُ مُتَنَوِّعاً تَسَمَّى بِأَسْمَاءٍ فِيهِنَّ مَطَالِعُ

وَقُلْتُ فِي تَائِيَّتِي الْخَمْرِية:

تَجَلَّتْ عَرُوسةً فِي مَرَائِي عروساً وأَزْخَتْ سُتُورَ الكِبْرِيَاءِ لِعِزَّةِ

فَالأَشْيَاء كُلُّها قامتْ بِالْخَمْرَةِ الأزَلِيةِ. وَلاَ وُجودَ لها بِدُونِهَا، بَلْ لاَ نِسْبَةَ لَهَا مَعَهَا:

مُنْذ عَرَفْتُ الإلَهَ لَمْ أَرَ غَيْراً وَكَذَا الْغَيْرُ عِنْدَنَا مَمْنُوعُ

قَالَ بَعْضُ المحققينَ: لَوْ كُلِّفْتُ أَنْ أَرَى غَيْرَهُ لَمْ أَسْتطَعْ؛ فإنَّهُ لاَ شَيْءَ مَعَهُ حَتَّى أُشْهِدَهُ: ثم احْتَجَبتْ هَذِهِ الخَمْرَةُ، بَعْدَ ظُهُورِهَا لحِكْمَةٍ أَزَلِية. سَتَرَتْ أَسْرَارَ الرُّبُوبيَة. وأَسْدَلَتْ حِجَاب الكبْرِياء عَلَى العظمَةِ الأصْلية. فخفيَت تلك الخمرة بعد ظهورها. واستترت بَعْدَ بُرُوزِهَا. وَحُجِبَتْ عَمَّن لاَ فَهْمَ عِنْدَهُ. وَلاَ بصيرة لَهُ إذ لَو انفَتَحَتْ بَصِيرتهُ لَمْ يَرَ غَيْرَها. قَالَ فِي الحِكَم: شُعَاع البصيرة، يشهدك قُرْبَ الحقّ مِنْكَ. وعَيْن البَصِيرَة، يُشْهِدك عَدَمَكَ لِوُجُودِهِ. وحقُّ البصيرة يشهدك وُجُود الحقّ، لا عدمك وَلاَ وجودك. كَانَ اللَّهُ وَلاَ شَيْءَ مَعَهُ؛ وهو الآنَ على ما عليه كَانَ. وقال المجذوب رضي اللَّهُ عَنْه:

مَنْ شهدَ الكَوْن بِالكَوْنِ ... عَزّة في عَما البصِيرَا
وَمَن شهد الكوْن بالمُكْوِّنِ ... ذَاكَ صادف علاج السريرَا

وقد أشرت إلى هَذَا المعْنَى الَّذي ذكره الشيخ، في تائيتي الخمرية فقلْت:

فَإِنْ تَسَأَلُوني عَنْ نُعُوتِ كَمَالِهَا ... فَإِنِّي خَبِيرٌ عَنْ شُهُودٍ وَخِبْرَةِ
تَقَدَّمُ كُلَّ الكَوْنِ نُورُ بهَائِهَا ... لطيفٌ خَبِيرٌ فِي صَفَاءٍ وَقُدْرَةِ
وَقَامَتْ بِهَا الأشْيَاءُ حِينَ تَكَثَّفَتْ ... وَعَنْ كُلِّ ذِي جَهْلٍ خَفَيَتْ لحِكْمَةِ

وَاعْلَمْ أَنَّكَ لاَ تَفْهَمُ هَذِه الخَمْرة ذَوْقاً وَعِلْماً. إلاَّ إذَا أَصْحَبت أَهْلَهَا: وهم العارفُونَ بِذَلِكَ أَهْل الجَذْب والسلوك. وأمَّا إن لم تصحبهم، فَلا تطْمع فِي فَهْمها. وَلَوْ طَالَعْت أَلْفَ مجَلَّد. وصحبْت ألف عالم؛ أوْ عابِدٍ. وباللَّهِ التوفيق. ثم قال رضِي اللَّهُ عَنْهُ:

وَهَامَتْ بِهَا رُوحِي بحَيْثُ تَمَازَجَتْ ... بِعَاداً وَلاَ جِرْمٌ تُخلِّله جِرْمُ

قال في القاموس. الْهُيَام بالضَّمْ. كالجُنُونِ مِنَ الْعِشْقِ. وقال أَيْضاً: هَامَ يَهِيمُ هِيْماً، وَهيْماناً: أَحبّ امرأَةَ. ثُم قال: وَرَجُل هائم: متحيّر. وتمازَجَ: اختلط والاتحاد: يطلق على مَعْنَيينِ: أَحدهما: اختلاط جِرْمَيْن. حتى يَصِيرا جِرْماً واحِداً. وهَذَا مُحَال فِي حقّه تعالى، وَهُوَ كُفْر لِمَن اعْتَقَدَهُ. ويطلق على الوحدة الحقيقية يُقَال: اتَّحَدَ الشيْء إذا صارَ واحداً؛ وهو المُرَاد هُنَا. وفي هَذَا المعنى. قال القُطْبُ بن مشيش رضِي اللَّهُ عَنْهُ: وَشرَاب المحبَّة: مَزْج الأوصاف بالأوصافِ. والأخْلاَق بالأخْلاقِ. والأنوار بالأنوار. والأسْمَاء بالأَسْمَاء. والنعوت بالنعوتِ. والأفْعَال بالأفْعَال هـ. والجرم: الجَسَدُ، ويجمع على أَجْرَام. وجُرُوم،

وجرم قاله في القاموس. يقول رضِي اللَّهُ عَنْهُ: لقَدْ هامَتْ رُوحِي أَيْ طاشَتْ وانْجَذَبَتْ، بِسَبَبِ هَذِهِ الخَمْرَةِ. محبَّةً وعشقاً فَمَا زَالَتْ تتعطش إِلَيْها. وتطلب الوصول إِلَيْها بِالتخلية والتَّصْفِية. فَلَمَّا تَجَوْهَرتْ وتَطَهَّرتْ مِنْ بَقَايَا الحِسِّ. اتَّصَلَتْ بِهَا وَامْتَزَجَتْ مَعَهَا. فوجَدَتْ نَفْسَهَا كَانَتْ فِي الحَضْرَةِ وهِيَ لاَ تَشْعُرُ. وإنما حَجَبها عَنْهَا الجَهْل والْوَهْمُ. فَلَمَّا ارْتَفَعَ الْجَهْل. وثبَت الْعِلْمُ. وَجَدَتْ نفسَهَا فِي الحَضْرَةِ. فَغَرَقَتْ فِي عَيْن بَحْر الْوَحْدَةَ. وَارْتَفَعَ عَنْهَا الشِرْك الخَفِي والجلِي. وَهِيَ هَذَا المَعْنَى. قَالَ بَعْضُ المَشَارقة.

كُنْتُ قَبْلَ الْيَوْم مَحْجُوباً بِالْوَهْمِ ... مُقَيَّداً بِقُيُودِ الْبَيْنِ
مُفْرَدِي وَاحِدٌ وأَنَا أَحْبِسُهُ اثْنَيْنِ ... فَلَمَّا تَبدَّى جَمَالٌ وارتَفَعَ الضِيْنِ
وَقَعَ الْعَيْن عَلَى الْعَيْن ... وصِرتُ عَيْن الْعَيْن

وقال في الحِكَم: ما حَجَبك عن الله وجود مَوْجود معه. إذ لا شيء معه: وإنما حَجَبَكَ تَوَهّم موجود مَعَهُ.

وقال أَيْضاً: وصُولُكَ إلى اللَّهِ، وصُولُكَ إلى الْعِلم بِهِ. وإلاَّ فَجَلَّ رَبّنَا أن يتصلَ بِشَيءٍ، أَوْ يتَّصِل بِهِ شَيْءٌ. وهَذَا مَعْنَى الاتحاد؛ إذا أُطلق عِنْدَ الصوفية. أَعْنِي بثبوتِ العِلْم بالوحدة. بَعْدَ الْجَهْلِ بِهَا. أَوْ بثبوت الْعِلم بعد حُصُول الْفَرْقِ. ومِنْهُ قَول صاحب الْعَيْنِيَة:

وَغُصْ فِي بِحَار الاتِّحادِ مُنَزِّهاً ... عَنِ الْمَزْجِ بِالأَغْيَارِ إن أَنْتَ سَاجِعُ
وَإِيَّاكَ والتَّنْزِيهَ فَهُوَ مُقَيِّدٌ ... وَإِيَّاكَ والتَّشْبِيهَ فَهُوَ مُخَادِعُ

وقال أَيْضاً في مَدْحِ آخَر:

فَكُنْتَ أَنَا وَهِيَ كَانَتْ أَنَا وَمَا ... لَهَا مِنْ وُجُودٍ مُفْرد مُتَنَازع
فَنِيتُ بِهَا فِيهَا وَلاَ شَيْءَ بَيْنَنَا ... وِصالِي بِهَا مَاضٍ وَبُهَا مُضَارِعُ

وَقالَ أَيْضاً:

فنيتها حتَّى فَنَتْ وَهِيَ لَمْ تَكُنْ ... وَلَكِنَّنِي بِالْوَهْمِ أُطَالِعُ

وَمِنْ ذلِكَ قَوْلُ الشَّاعر:

أَنَا مَنْ أَهْوَى وَمَنْ أَهْوَى أَنَا ... فَنَحْنُ رُوحَانِ حللنا بَدَنَان

فَلاَ يَفهم هَذا الكَلاَم عَلَى ظَاهِرِهِ مِنَ الاتِّحَادِ والحُلولِ؛ لأنهم مُبَرَّؤُونَ مِنْهُ.

وإنما أَرَادُوا إظهار التَّغَزُّل بإثبات المحبوبة والمحبّ، وحُصُول العشق مِنَ المحبّ لَهَا، فإذا حَصَلَ الْوُصُول، لَمْ تَبْقَ هَذِهِ الإشارة، ولذلك قال في الحِكَم: مَا العارف. مَنْ إِذَا أَشَارَ وَجَدَ الحق أقرب إِلَيْهِ من إشارتِهِ. بَلِ العَارِفُ مَنْ لاَ إِشارة لَهُ. لفنائِهِ في وجودِهِ. وانطوائِهِ في شهودِهِ. ومن هَذَا المَعْنَى اخْتَرَسَ الشيخ بقولِهِ: وَلاَ جِرْم تخلله جِرْمُ. لَئلاَّ يَفهَم السَّامع أَنَّهُ الاتحاد المَذْمُوم، وقد اتهمهم كثير مَنْ لَمْ يفْهَمْ مُرَادَهُم. فربَّما همّ بِمَا لَمْ يحط به علماً، وقد تقدم تنزيه الشيْخ نَفْسه عن هَذَا المعْنَى فِي تائيته: نظم السلوك. وكَلام الشُّشْتُرِي، وابن سَبْعين، وابْن العربي، مشحوباً بِهذِهِ الإشارة. وهم أَوْلياء محققون. رضِي اللَّهُ عَنْهُم وَأَرْضَاهُمْ وَقَدْ أَشَرْتُ فِي تَائِيتِي الخَمْرية الأزلية، عن الحلول والاتحاد، فقلْتُ:

تَنَزَّهَتْ عَنْ حُكْم الْحُلُولِ فِي وَصْفَها ... فَلَيْسَ لَهَا سِوَى فِي شَكْلِهِ حَلَّتِ

تَجَلَّتْ عَرُوساً في مَرَائِي جَمَالِهَا ... فَأَرْخَتْ سُتُور الْكِبْرِيَاءِ بِعِزَّةِ

فَمَا ظَهَرَ فِي الكَوْنِ غَيْر بَهَائِهَا ... وَمَا احْتَجَبَتْ إلاَّ لِحُجْبِ شرِيرَةِ

واللَّهُ تعالى أَعْلمُ. ثم قَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

فَخَمْرٌ وَلاَ كَرْمٌ وَآدَمُ لِي أَبٌ ... وَكَرْمٌ وَلاَ خَمْرٌ وَلِي أُمُّهَا أُمُّ

وَقَدْ وَقَعَ التَّفْرِيقُ وَالْكُلُّ وَاحِدٌ ... فَأَرْوَاحُنَا خَمْرٌ وأَشْبَاحُنَا كَرْمُ

قُلْتُ: شَبَّهَ الشيخ رضِي اللَّهُ عَنْهُ: الرُّوح السَّارية في الْبَدَنِ: بِالْخَمرِ المُسْتَتِرِ فِي الكَرْمِ. وشَبَّهَ البَشرِية الظَّاهِرَةَ: بِالكَرْم المحتوى على الخَمرَةِ، والمريد في حال سيْرِهِ إنارة يغلبُ جَذْبه على سلوكه. وسكره على محوهِ. فتكون الرّوحانية غالبة على البشرية. مستولية عليها فَلاَ يَبْقى لِلْبَشرية أَمرٌ. وتارة يَغلِب سُلُوكه على جذبِهِ، ومحوه على سُكْرِهِ. فتكون البشرية غالبة على الرُّوحَانية. مُسْتَوْلِية عَلَيْها. فإذا غَلَبت الرُّوحانية على البَشرية، كَانَ كَوُجودِ خَمْرٍ بِلاَ كَرْم. وَإِذَا غَلَبت البَشرية على الرّوحانية، كَان كَوُجودِ كَرْم بِلاَ خَمْرٍ لبُطونها حينئذٍ. فبيَّنَ الشيْخ رضِي اللَّهُ عَنْهُ حالَهُ في حَالِ سَيْرِهِ فَقَالَ: فَأَنَا تارة خَمْرٌ وَلاَ كَرْمٌ، وذَلكَ في حالة جَذْبي وَسُكْري. وأَنَا حينئذٍ خليفة اللَّهِ في أَرْضِهِ عَلَى قَدَم أَبي آدَمَ عليه السَّلاَمُ. لأَنَّ الجَذْبَ عِنَايَةٌ. فإنَّ الرُّوحَ إِذَا اسْتَوْلَتْ على البَشَرية. اسْتَوْلَتْ على الوُجُودِ بِأَسْرِهِ. فيكون هو آدَمَ الأَكْبَرُ، خليفة عَن اللَّهِ، وَهَذَا مَعْنى قولِهِ: وآدَمُ لِي أَبٌ؛ لأَنَّ الإِبْنَ خَليفة عن أَبِيهِ. فيكون هُوَ حِينئذٍ خليفة اللَّهِ في كَوْنِهِ. وتَارَةً أَكُون كَرْماً وَلاَ خَمْر. والكَرْمُ شَبِيهٌ

بالبَشَرية. ويَحتمل أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: وَآدَمُ لِي أَبٌ. إشارة إلَى أَنَّ جَذْبَهُ مَمْزُوج بِسُلوكِهِ؛ لأنَّ المصطلَح، خرجَ عن طوْر البَشَرِ. فإنَّما أَنْ يَلْتحِقَ بالرُّوحَانِيِّينَ، أَوْ بالبَهَائِم. بخلافِ مَنْ كَانَ سَالكاً في جَذْبِهِ، فَظَاهره سُلُوكٌ، وَبَاطنه جَذْبٌ. لكن تارة يَغْلُبُ الجذْب، فتَنْخَنِسُ البَشرية، ملحُوظة. فهذا معْنى قولِهِ: وَآدَمُ لِي أَبُ. أَيْ وأنا بشرٌ مِن بني آدَمَ، لَمْ تَخرجْ عَنْ طَوْرِ الآدمية؛ وهَذَا هُوَ عيْن الكَمَالِ وتارة يغلب السلوك، فَيَبْطُنُ الجَذْبُ في الرّوحانية. وتظهر أوصاف البشرية على السَّالِك. فتكون الرُّوحَانية تَمْتدّ من البشرية، وتشرَبُ مِن كَأْسِهَا. كَمَا قال التستري:

مِنِّي عَلَيَّ دَارَتْ كُؤُوسِي ... فَتَكُونُ البَشَرِيَّة كَالأُمّ

والرّوحانية ولداً. رضع من لبنَها. وهَذَا مَعْنَى قَوْلِهِ: ولِي أَمّها أُمٌّ. أي حينئذٍ أُمّ الخمر؛ وهي الكَرْمُ أُمٌّ. والمراد بها البشرية، المستولية على الرُّوحانية، استِلاَء الكَرْم عَلَى الخَمْرِ. وهَذَا الاحتمَال أَحْسَن وأَظْهَرُ. واللَّهُ تعالى أَعْلَمُ. وهَذا التعريف كُله قبل الوُصول إلى التحقيق. وإلا امتحق الحسّ وثبَتَ المعْنَى. فالكُلّ واحِدٌ. فَلاَ قيامَ للبَشَرية إلاَّ بالرّوحانية. وَلاَ ظهور للرّوحانية إلاَّ بالبشرية. بَلْ إذا سَقطت المعاني، سقطت الأواني، فالأَكْوَان ثَابِتَة بِإثباتِهِ. مَمْحُوَّة بِأَحدية ذَرتِهِ. فَلاَ بَشَرِية وَلاَ رُوحَانية. وإنما الوجود للفرْد الصَّمَد. لاَ شَريكَ لَهُ. وأَنشَدُوا:

فَلَمْ يَبْقَ إِلاَّ الْحَقُّ لَمْ يَبْقَ كَائِنُ ... فَمَا ثَمَّ مَوْجُودٌ وَلاَ ثَمَّ بَائِنُ

بِذَا جَاءَ بُرْهَانُ العِيَانِ فَمَا أَرَى ... بِعَيْنَيَّ شَيْئاً غَيْرَهُ إِذْ أُعَايِنُ

**تنبيه**: مَا ذكَره النَّاظم في هذيْن البَيْتَيْن، مِن تَشْبيه الجَذْبِ بِخَمْرٍ وَلاَ كَرْم. وتشبيه السُّلوك بِكَرْم وَلاَ خَمْر. مَثَلُهُ وَقَع للجنَيْد فِي شعرهِ المشهور، حيْث سُئِلَ عن التوحيد، فَأَنْشَدَ يَقُولُ:

رَقَّ الزُّجَاجُ وَرَقَّتِ الْخَمْرُ ... فَتَشَابَهَا وتَشَاكَلَ الأَمْرُ

فَكَأَنَّمَا خَمْرٌ وَلاَ قَدَحٌ ... وَكَأَنَّمَا قَدَحٌ وَلاَ خَمْرٌ

فَتَشَبَّهَ البشرية بالزجاجة. والرّوحانية بالخَمر. فَإِذَا غَلَبَت الرُّوحانية على البشرية، وذلك في حالة الجذب. فَكأَنَّمَا خَمْرٌ وَلاَ قدحٌ، وإنمَا غَلَبَت البشرية على الرّوحانية، وذَلِكَ يكون في حالِ السُّلُوك. فَكَأَنما قَدَحٌ وَلاَ خَمْر. وقد أَوْضَحْت هَذَا الْمَعْنى فِي تَائِيتي الخَمْرية. فقلْتُ:

لِرِقَّةِ خَمْرٍ فِي الأَوَانِي تَلَطَّفَتْ ... لِلُطْفِ مَعَانِي الخَمْرِ فِي أَصْل نَشْأَتِي

فَطَوْراً تَغيبُ الْخَمْرُ فِي جِرْمِ كَأْسِهَا وَطَوْراً تَغِيبُ الكَأْسُ فِي خَمْرِ نَشْوَةِ
وَغَيْبُ الأَوَانِي فِي الْمَعَانِي مُحقق فَنَاءُ الأَوَانِي فِي الْمَعَانِي الْقديمَةِ
فَأَشْبَاحُنَا كَأْسٌ وَأَرْوَاحُنَا خمْرٌ وَسَاقٍ لَهَا جَذْبُ الْعِنَايَةِ حَفَّتِ

واللَّهُ تعالى أَعْلَمُ. ثُمَّ قَال رَضِي اللَّهُ عَنْهُ:

وَلُطْفُ الأَوَانِي فِي الْحَقِيقَةِ تَابِعُ لِلُطْفِ الْمَعَانِي وَالْمَعَانِي بِهَا تَسْمُو

قلْتُ: لَطُفَ كَكَرُمَ. لطفاً ولطافة: صَغُر ودق؛ فَهُو لطيف. قالهُ في القاموس. وَسَمَا الشيْء سُمُوّاً: ارْتَفَعَ. والأَوَانِي هُنَا: الكَائنات بِأَسْرِهَا. والْمَعَانِي: أَسْرار الرُّبوبية الْقَائمة بِهَا؛ وهِي الخمْرةُ المتقدمَة. فأَصْلُها لطيفة دقيقة. والأنوار الظَّاهرة حينَ تحسَّست، صَارَتْ كثيفة. فَمَنْ وَقَفَ مَعَ ظَاهِرِ كَثافتَها. كَانَ جَاهِلاً باللَّهِ. مَحْجُوباً عَن شهودِهِ. وَمَن نَفَذَ إلى بَاطِنِهَا وَجَدَها حاملة للمَعَانِي ظُروفاً لأسْرَار الرُّبُوبية. فَغَاب عَنِ الأَوَانِي، بشهودِ الْمَعَانِي. فَكَان عَارفاً مُقرّباً مَحْبوباً. وفِي ذَلِكَ يقول التشتري: لاَ تنظرْ إلى الأَوَانِي، وخُضْ بَحْرَ المَعَانِي. لَعلَّكَ تَرَانِي. وقال فِي الحِكم: الأَكْوَانُ ظَاهِرُهَا غُرَّةٌ. وَبَاطِنُهَا عِبْرةٌ. فالنَّفسُ تَنْظُر إلى ظَاهِرِ غرّتها. والقَلْبُ يَنظُرُ إِلَى بَاطِنِ عِبْرَتِهَا. وتكثيفُ الأَوَانِي عَارفٌ. والأَصلُ فيها اللَّطافة. إذ الأَوَانِي أَصْلُها مَعَانٍ. لكن اسْمُه تعالى الظَّاهر، اقتَفَى ظهورها فِي الحِسِّ فَهِيَ أَشْبَهُ شَيْءٍ بالثلجة، باطنها ماء، وظاهرها ثلج. وفِي ذلِكَ يَقُولُ الجَيلاَنِي فِي عَيْنِيتِهِ:

وَمَا الكَوْنُ فِي التِّمْثَالِ إلاَّ كَثَلْجَةٍ وَأَنْتَ لَهَا الْمَاءُ الَّذِي هُوَ نَابِعُ
فَمَا الثَّلْجُ فِي تَحْقِيقَنَا غَيْرُ مَائِهِ وغَيْران فِي حُكْمٍ دَهَتْهُ الشَّرائِعُ

وَهَذَا مَعْنَى قول الشيْخ رضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ولطف الأَوَانِي فِي الحقيقة، تابِعَة لِلُطوفِ الْمَعَانِي. فَالمَعَانِي في الحقيقة أَصْلها مَعَانٍ. والمَعَاني لطيفة. ولُطْفُ الأواني تابع لِلُطْفِهَا. وَإِنَّمَا تَكَثَّفَتْ وَتَحَسَّسَتْ، فِي حَقِّ مَنْ وَقَفَ مَعَهَا، وَاغْتَرَّ بزُخْرُفِ ظَاهِرِهَا. واشْتَغَلَ بِحِسِّها، حَتَّى انطبَعَتْ صُوَرُ ظَاهِرِهَا فِي مِرْآةِ قَلْبِهِ. فَعَمَا وَحُجِبت عَن رُؤْيةِ الْمَعَانِي اللَّطِيفة. ولِذَلكَ يَقُولُ أَهْلُ المَعَانِي: كُلُّ مَا نَقَصَ مِنَ الحسِّ؛ زَادَ فِي الْمَعْنَى. وكُلّ مَا زَادَ فِي الحِسِّ نَقَصَ فِي المَعْنَى. وهَذا مَعْنَى قولِهِ: وَالْمَعَانِي بِهَا تَسْمُو. أَيْ بِلُطفِ الأَوَانِي. وردّها إلى أَصْلها، ترتفع المعاني وَتَسْمُو. وإنما تَتَلَطَّفُ الأَوَانِي بِالْغَيْبَةِ عَنْ حِسِّهَا. والإِعْرَاضِ عَنْ شَوَاغِلِهَا،

وَعَوائِقها. فَرِّغْ قَلْبَكَ مِنَ الأَغْيار. تملأ بالمَعارف والأسْرار. وكَتَبَ إِلَيَّ شَيْخُ شَيْخِنَا مَوْلاَي العربي رَضِي اللَّهُ عَنْهُ ما نصُّهُ بَعْدَ كَلاَم: وقُلْ لهم أَيْضاً: أَتراكُوا دَبْلَةَ الدّنيا مِنْ قلوبكُمْ، تتقوّى مَعَانيكُمْ: أو نقولُ نورانيتَكُمْ. إذْ بِتَقْوِية النُّور؛ يتقوَّى اليقِين. وبتقوية اليقين، تَعْلُو الهِمَّةُ. وَبِعُلوّ الهِمَّة، يَحْصُل الوصُولُ. وباللَّهِ التوفيق هـ. والدّبْلة: رَأْسُ الفتيلة حينَ تَتَرمَّدُ. فَإِذَا قطعْتها تَشَعْشَعَ نُورُهَا. كَذَلِكَ هَمُّ الدّنيا. يُطْفِيءَ نور اليقين مِنَ الْقَلْبِ. فَإِذا قطعته تشعشع نوره. وقلْت لبعْض الفُقَرَاء: مَادَّة المَعَانِي ثلاثة أُمُورٍ: الأول المُذَاكرة مَعَ أَهْل الفنّ، والحَلّ مَعَهُمْ. والثاني: الفِكرة وَجَوَلان الْقَلْب فِي مَيَادِين التوحيد، حَتَّى تَمْتَحى الأكْوَان مِنْ عَيْن البَصيرة. والثالث: ذِكر اللسَان جَمَاعة أو فرادى؛ وهو أضعفها مِنْ جِهَةِ الامْتدادِ. وتقوية المَعَانِي. وإن كَان هُوَ الباب في الدّخول إِلَيْهَا. لكن إذا حَصَلَ ذِكر القَلْب اكتفَى عَنْهُ: فَضعُف تَأْثِيره بالنّسْبَةِ إِلَى الفِكْرَة. وقُلْت لَهُم: مَادَّة الحسّ ثلاثة: الأول: شغل الجوارح بالحسّ في طَلَبِ الحُظُوظِ. والثاني خوف اللسان في الحسّ مَعَ أَهْلِه. والثالث: الفِكْرة فِيه، واشتغَال القَلْبِ بالخَوْفِ فِيهِ. فبهذه المواد الثلاث، يتَقَوّى الحسّ. وتَضْعُف المعانِي. حتى ينطفىء نورها. نعوذ باللَّهِ مِن ذلِكَ. وقلْت لهم أَيْضاً: أَرْكَان الوِلاية وَموادها ثلاثة أشياء: تَفرِيغ القَلْبِ مِنَ الحسّ، وتَعظيم الشيْخ والأدب مَعَهُ. وَدَوَامُ الذِّكر بالحضور. كل واحد ما يليق به لساني أو قَلبِي أَوْ سِرّي. وقدْ قُلْت في ذلِكَ أَبياتاً وهي هذِهِ:

يَـا مَـنْ يُـرِدْ مَـرَاتِـبَ الـرِّجَـالِ ... يَـفْـنَـى عَـنِ الـحـسِّ فِـي كُـلّ حَـال

يُـفَـرِّغ قَـلْـبَـه مِـنَ الأغْـيَـارِ ... يُـمْـلأ بـالأَنْـوارِ والأَسْـرَار

يُـعَـظِّـمُ الـشَـيْـخ بِـصِـدْقٍ وَافِـرْ ... وَيُـكْـثِـرُ الـذِّكْـرَ بِـقَـلْـبٍ حَـاضِـرْ

فَـهَـذِهِ مَـرَاسِـمُ الْـوِلاَيَـةْ ... وَمَـظْـهـر الـعِـرْفَـان والـعِـنَـايَـةْ

وَسَمِعْت صاحبنا العارف الرّبّاني، سيدي عبد الرَّحمن الرَّحماني رضِي اللَّهُ عنه يقولُ: الحسُّ هو كل ما يُقوي مَادَّة وُجُودكَ. والمعْنى هو كُلّ مَا يفنِيك عن وُجودك. ويغيبك عنكَ. فالاشتغال بِالحِسّ إذَا كَانَ سَبَباً في تقوية المَعَاني، كَخِدْمَة الأشياخ والإِخْوَان. وكُلّ ما يؤدّي إلى تصفية المَعْنى. كَمَا قال سيدي عبد الوارث رضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: خِدْمَةُ الرِّجَالِ، سَبَب الوِصال، لمَوْلى المَوَالِي. لاَ إِلَه إِلاَّ اللَّهُ. واللَّهُ تعالى أَعْلَم. ثم قال رضِي اللَّهُ عنْهُ:

وَلاَ قَـبْـلَـهَـا قَـبْـلٌ وَلاَ بَـعْـدَهَـا بَـعْـدُ ... وَقَـبْـلِـيَـة الأَبْـعَـادِ فَـهْـيَ لَـهَـا خَـتْـمُ

وَحَضْرُ المَدَى مِنْ قَبْلِهِ كان عصرهَا وَعَهد أَبِينَا بَعْدَهَا وَلَهَا الْيُتْمُ

يقول رضي اللَّهُ عَنْهُ: هذه الخمرة الأزلية قديمة باقية، فَلَيْس قبلها زمانٌ يكون قبلاً لَهَا وَلاَ بَعْدَهَا زَمَانٌ يكون بَعْداً لَهَا. والقَبْلِية التِي ثبتَتْ لَهَا قبل ظهور الأشياءِ؛ وهي الأولية بِلا بداية. هيَ ختْم لها بَعْد ظهور الأشياء؛ وهي الآخرية بِلاَ نِهَاية. فَتَرَتُّب الأَزْمَان زَمَان بَعْد زَمان؛ هي سَابقة عليه. وباقية بَعْدَهُ. هَذَا مَعْنَى قوله: وقبلية الأبعاد هي لها خَتْمُ. أي وعدم النهاية السابقة على الأكوان؛ هي خَتْم لها بَعْد ظهور الأكْوَانِ. قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ فالأسماءِ متعددة، وَالمُسَمَّى واحِد؛ وهي الذَّات المقدَّسة؛ فالأول هو عيْن الآخِرِ. والآخر هو عيْن الأول. والظَّاهر هو عيْن الباطِن. والباطن هو عيْن الظَّاهِر. وَإِلَى هَذَا أَشار صاحب العينية فقال:

وَأَبْرَزَ مِنْهُ فِيهِ آثار وَصْفِهِ فَدلَّكَ بِالآثَارِ مَا هُوَ صَانِعُ

فَأَوْصَافُهُ والاسْمُ والأَثَرُ الَّذِي هُوَ الكَوْنُ عَيْنُ الذَّاتِ واللَّهُ جَامعُ

فَمَا ثَمَّ شَيءٍ سِوَى اللَّهِ فِي الْوَرَى وَلاَ ثَمَّ مَسْمُوع وَلاَ ثَمَّ سَامِعُ

وقوله: وحضر المدى... الخ يعْني أَنَّ وجود هَذِه الخمرية، كان قديماً قَبْل حَضرِ الزَّمَانِ، وعدّه وتَرْتيبه. وزمان وجود أبينا آدم عليه السَّلام، وعهد حياته كان بعدهَا: لأن ظهوره حادثٌ. ووجوده قدِيمٌ. فثبت لها الْيُتْمُ، أي الانفراد، والغِنَا عَنِ المَادَّة القبلية والبَعْدية. فليْسَ لها أَبٌ سَابِق عليْهَا. وَلاَ وَلَدٌ لاَحِق بَعْدَهَا. قال تعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ ثم قال رضي اللَّهُ عَنْهُ:

مَحَاسِنُ تَهْدِي المَادِحِينَ لِوَصْفِهَا فَيَحْسُنُ فِيهَا مِنْهُمُ النَّثْرُ وَالنَّظْمُ

وَيَطْرَبُ مَنْ لَمْ يَدْرِهَا عِنْدَ ذِكْرِهَا كَمُشْتَاقِ نُعْمٍ كُلَّمَا ذُكِرَتْ نُعْمُ

قُلْت: الطربُ: الفَرَحْ. ويُطلقُ على الحُزْنِ كَمَا في القَامُوس. يُقالُ: طرب طرباً. كَفَرِحَ فَرَحاً. بالمضارع مفتوح العيْنِ. ونَعُم بِضَمّ العَيْنِ. اسم امرأةَ. كَمَا فِي القَاموس. وأَرَاد هُنا اسم المحبوبة. يقول رضي اللَّهُ عَنْهُ: الأوصاف التي ذكرتْ للخمرة، هِيَ محاسِنُ لَهَا. تهدِي أَيْ تُرْشد المَادِحِينَ لِوَصْفهَا. فَيَمْدحُونَها بِقَدْرِ طَاقَتِهِمْ. فَيَحْسُن منهم كلّ ما يمدحونَهَا بِهِ نَظْماً أَوْ نَثْراً؛ لأنها فوق ما يُقَال فيهَا: فَلَوْ بَقِي أَهْل الدّنيا يَمْدحُونَها مُدَّة عُمُر الدّنيا والآخرة، ما بَلَغُوا معشار حسْنِها وبهائِهَا. ويفرح عند ذِكر هذه الأمْواجِ من لمْ يَعْرفها، شوقاً ومحبَّةً. فكيْف لمَن يعرفها؛ فهو أَب

مَن لَمْ يَعْرفها. ولكنه مشتاق إليها، كمشاق محبُوبته التي اسْمُها نُعَم. فلما ذكرت هذه المحبوبة، اهتَزَّ لَهَا. واشتاق لرُؤيتها. وَأَمَّا مَنْ عَرَفَها وَاتَّصَلَ بها، وتَمَكَّنَ مِن شُهُودها. فلا يَهُزّه سماع مَدحهَا. لقوَّتِهِ وتمكّنِهِ؛ فَهُو مالكٌ للأَحْوَالِ. وليْسَت مالكة له؛ فهو كالجبل الرَّاسِي، واللَّهُ تَعَالى أَعْلَمُ. ثم قال رضي اللَّهُ عَنْهُ:

وَقَالُوا شَرِبْتَ الإِثْمَ كَلاَّ وَإِنَّمَا شَرِبْتُ الَّتِي فِي تَرْكِهَا عِنْدِي الإِثْمُ

قُلْتُ: كَلاَّ عِنْدَ النحاة حَرْفَ زَجْر وَرَدْع. يقول رضي اللَّهُ عَنْهُ: قال لي العواذل واللؤم: شَرِبْتَ مَا يُوجِب لكَ الإِثْم؛ لأَنَّكَ تَسَبَّبْتَ فِي هَتْك عِرْضكَ. وتخريب ظاهركَ. وتَلْف مالك. فَقُلْتُ لَهُمْ: كَلاَّ. بَلْ شَرِبْت التي في تَرْكِ شُرْبِهَا هُوَ الإِثْمُ؛ لأنها تُهذِّبُ أَخْلاَق النَّدَامَى. فكُلّ من لم يَشْرَبْ مِنْهَا، لا يَخْلُو مِن ذَنْب. وَلاَ يَصْفو مِن عَيْبٍ. ولذلك قال الغَزَّالي: عِلْمُ التصوف فَرض عَيْن. إذْ لاَ يَخْلُو الإِنْسَان من العُيُوبِ. وقال الشيخ أَبُو الحَسَنَ: مَنْ لَمْ يَتغَلْغَلْ في علمِنَا هَذَا؛ ماتَ مُصِرًّا على الكَبَائر؛ وَهُوَ لا يَشْعُرُ. وقال آخر: مَنْ تَشَرَّعَ وَلَمْ يَتَصَوَّفْ فَقَدْ تَفَسَّق. إلى غَير ذَلِكَ. لِمَا وَرَدَ في مَدْحِ التَّصوّفِ وأربابه به. وباللَّهِ التوفيق. ثم قال رضي اللَّهُ عَنْهُ:

هَنِيئاً لأَهْلِ الدَّيْرِ كَمْ سَكِرُوا بِهَا وَمَا شَرِبُوا مِنْهَا وَلَكِنَّهُم هَمُّوا

قلت: الهَنَى والْهَنَاءُ: ما أَتَاكَ بِلا مَشَقَّةٍ. هو هنيّ سائغٌ. قوله في القاموس: ويُعرب حالاً. عامله محذوفٌ وجُوباً. أي ثَبُتَ الخَيْرُ هَنِيئاً. أَي سَهْلاً بِلا مَشقةٍ. والدَّيْرُ: الصَّوْمعة التي يتعَبَّد فِيها الرُّهْبَان. فيُحتمل أَن يُريد بِأَهْلِ الدَّيْر هُنَا: العُبَّاد والزُّهَّاد المنقطعينَ إلى اللَّهِ في البَرَاري والجِبَالِ. حَبَسُوا أَنْفُسَهُمْ لِلّهِ. كَمَا حَبَسَت الرّهْبَان أَنفسهم فِي الدّيور، طلباً لمحبَّة اللَّهِ. فَلَم ينَالوا مِنْهَا شيئاً. لتركهم الشريعة التي هي باب اللَّهِ. قال تعالى: ﴿وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ بخلاف العُبَّادِ والزُّهَّاد، والمنقَطِعِينَ إلى اللَّهِ. قد قَصَدُوا الأمْرَ مِن بَابِهِ. فَقَال الشيخ رضِي اللَّهُ عَنْهُ، مبَشّراً لَهُمْ ومُغْتبِطاً لِحَالِهِمْ: هَنيئاً لأهْلِ الدَّيْر. أَيْ ثَبَتَ لَهُمُ الخَيْر العَظيم سهْلاً بِلا مَشَقَّةٍ. فَكَمْ سَكِرُوا بِهَا. أَيْ كَثِيراً مَا سَكرُوا بِهَذِهِ الخَمْرَةِ، حتَّى تَاهُوا، ورفَضُوا الأَهْلَ والأَولاد. وتَرَكُوا الأوطَانَ والبلادَ. وَمَع ذَلِكَ، لَمْ يَقَعْ لَهُم شُرْب مِنْهَا. إذْ لَمْ يَتَّصِلُوا بِأَرْبَابِهَا؛ وهم الْعَارِفُونَ أَهْل التربيَة النبوية، والخمرة الأزلية. إذْ لَوِ اتصلُوا بهم: لسَكِرُوا في مَوْضعهم وبيْنَ أَوْلاَدِهِمْ. ولكنهم هَمُّوا بشربهَا، فَتَاهُوا فِي طَلَبِهَا فَسَكِرُوا قَبْلَ الشُّرْبِ. فَمَا بَالُكَ لَوْ شَرِبُوا. وَمَا بَالُكَ لَوْ رُؤوا مِنْهَا.

فَسُكْرُ العُبَّادِ والزُّهَّادِ؛ هو الفِرَار من الأشياءِ، لغَيْبَتهم عَنْ شُهُودِ مَكَوّنها. ولو شَهِدوا مُكَوّنها فيها لَمْ يَفِرُّوا مِنْهَا. قال في الحِكَم: إنَّمَا اسْتَوْحَشَ العُبَّادُ والزُّهَّادُ مِن كُلِّ شَيْءٍ. لغَيْبَتِهِمْ عَنِ اللَّهِ في كُلِّ شَيءٍ. وَلَوْ عَرَفُوهُ في كُلِّ شَيْءٍ. مَا اسْتَوحَشُوا مِنْ شَيْءٍ. هـ. فَسُكْرُهُم نَاقِصٌ. بخلافِ مَنِ اتَّصَلَ بِأَهْلِ الخَمْرَةِ، فَسَقوه مِنْهَا فَإنّ سُكْره مَمْزوج بِصَحْوةٍ. فَكُلَّما شَرِب ازْدَادَ صَحْواً. وكَلَّمَا غَابَ، ازدادَ حُضُوراً. لا يحجبه صَحْوة عن سُكْرِهِ. وَلاَ سُكْره عَن صَحْوِهِ. وَيُوفي كل ذي قسط قِسْطَهُ. ويحْتَمل أَن يُريد بأَهْلِ الدَّيْر؛ الرُّهْبَان المنقطعين فيه من النَّصارى. أي لولا المحبَّة التي في قلبهم ما صَبرُوا على تلك المشاقّ. من الجوع والبَرْدِ. فَلَوْلا خَمرة المحبَّة التي شمتها أَرْواحهم مِن وَرَاءِ الحِجَابِ. مَا انْقَطَعُوا هَذَا الانقطاع. فإنْ قُلْت: لاَ يصحّ قوله في حَقِّهِمْ هَنِيئاً. إذ لاَ خَيْرَ عِنْدَهُمْ. قُلْتُ: للعارفينَ نَظَرٌ رقيق، يشهدُونَ الأنوار الباطنة. ويغيبون عن الظلمَة الظاهِرَة. يَشْهَدُونَ القُدْرَة، ويَعْرِفُونَ الحِكْمَةَ. فَهُم كالنَّحْلَةِ، تَرْعى مِن كل نُورٍ. حلواً أَوْ مُرّاً. وَلاَ يَخرُج مِنها إلاَّ العَسَل الحُلْوَ. ولذلك قال شيخ أشياخِنَا. سيّدي عَبْد الرحمن الْمَجْذُوب:

الـــخـــلـــق نُـــورٌ ... وأَنَـــا ازعـــجـــت فـــيـــهـــم
هُـــمُ الـــحُـــجُـــبُ الأَكْـــبَـــرْ ... والْـــمَـــدْخَـــلُ فـــيـــهـــمْ

وفي هَذَا المنْزع يقول الرّفَاعِي رَضِي اللّهُ عَنْهُ:

تَـأَدَّبْ بِبَـابِ الـدَّيْـرِ وَاخْـلَـعْ بِـهِ الـنَّـعْـلاَ ... وَسَـلِّـمْ عَـلَـى الرُّهْبَانِ وَاخْطُطْ بِهِمْ نَعْلاَ
وَعَـظِّـمْ بِـهِ الْـقِـسِّـيسَ إِنْ شِـئْـتَ حظْوةً ... وكَـبِّـرْ بِـهِ الـشَّـمَّـاس إِنْ شِـئْـتَ أَنْ تَـعْـلاَ
وَدُونَـكَ أَمْـوَاتُ الـشَّـمَّـامِـيـنَ فَـاسْـتَـمِـعْ ... لأَلْـحَـانِـهِـمْ واحْـذَرْكَ أَنْ يَـسْـلُـبُـوا الْـعَـقْـلا
بَـدَتْ فِـيـهِـمْ أَقْـمَـارٌ شُـمُـوسٌ طَـوَالِـعُ ... يَـطُـوفُـونَ بِـهِ الـصُّـلْـبَـانِ واحْـذَرْكَ أَنْ تَـبْـلاَ
فَـإِيَّـاكَ أَنْ تَـسْـمَـعْ لَـهُـنَّ بِـخُـلَّـةٍ ... وَإِيَّـاكَ أَنْ تَـجْـمَـعْ لَـهُـنَّ بِـكَ الـشَّـمْـلا

إلَى أَن قال في أَثْنَاءِ القَصِيدَة:

فَـلَـمَّـا أَتَـيْـتُ الـدَّيْـرَ أَمْـسَـيْـتُ سَـيِّـداً ... وَأَصْـبَـحْـتُ مِـنْ زُهْـدِي أَجُـرُّ بِـهِ الـذَّيْـلا
سَـأَلْـتُ عَـنِ الـخَـمَّـارِ أَيْـنَ مَـحَـلُّـهُ ... وَهَـلْ لِـي سَـبِـيـلٌ لِـلْـوُصُـولِ بِـهِ أَمْ لاَ
فَـقَـالَ لِـيَ الْـقِـسِّـيـسُ مَـاذَا تُـرِيـدُهُ ... فَـقُـلْـتُ أُرِيـدُ الْـخَـمْـرَ مِـن عِـنْـدِكُـمْ أَمْ لاَ
فـقـال: وَرَأْسِـي والـمـسـيـح ابـن مَـرْيـم ... ودِيـنِـي ولـم بـالـدَّم تُـبَـدِّلُـهُ بَـدْلاَ

إلَى آخِرَ كَلاَمِهِ رضِي اللَّهُ عَنْهُ: فَلِلْعَارِفِينَ مَنْزَع غَرِيبٌ، ونظَرٌ عجِيبٌ. لاَ يَذُوقُهُ إلاَّ مَنْ صَحِبَهُمْ. وإلاَّ فَشَأْنهُ التَّسْليمُ. فإنِ اعْتَرَضَ عَلَيْهِمْ، أَصْبَحَ مِنَ البُكْمِ الصُّمِّ الذِينَ لاَ يعقلُونَ. وَلاَ شكَّ أَنَّ الحقيقة الْعَارية مِن وَرَاء الشريعة؛ الشهوة فِيها أَقرب وأظهَرُ. ولذلك قال:

بَـدَتْ فـيـهـم أقـمـار شـمُـوع طَـوَالِـعُ وَلاَ يَـذُوق هَـذَا إلاَّ أَرْبَـاب الـفَـنْ

قلت: النَّشْوَة: السَّكْرَة. يُقالُ: نَشَا نَشْوَة: سَكَرَ. قَالَهُ في القاموس. يقول رضي اللَّهُ عَنْهُ: عِنْدِي مِنْ هَذِهِ الخَمْرَةَ. نشوء لرُوحي في الأزَلِ. قَبْلَ نَشْأَةَ البَشرية. فَمَا ظَهَرَ فِي عَالَمِ الشَّهَادة. إلاَّ مَا سَبَقَ فِي عَالَمِ الْغَيْبِ. فللرُّوح سَكْرَة. لِمَا عَلِمَتْهُ مِن سَبْقِ السَّعَادَةِ، والعِنَايةِ، قَبْل ظهور البْرية. ثُمَّ تبقى تِلك النَّشْوَة لهَا، بَعْد مُفَارقتها هذه البشرية اللطيفة، وإن بقي عظمها، واضْمَحَلَّ رَسْمُهَا؛ فإنَّ الرُّوحَ لاَ فَنَاءَ لَهَا. فَإِذَا فَارَقَتْ هذه البَشرية. بقيْت عَلى ما كَانَتْ عليه مِنَ المعرفة والعِلْم. بل لَمْ تَزَلْ تَتَرَقَّى فِي المَقَامَاتِ، كما كَانَتْ فِي الدُّنيا أَبَداً سَرْمَداً. يَمُوتُ الْمَرْءُ عَلَى ما عاش عليه. ويُبْعَثُ عَلَى مَا مَاتَ عَلَيْهِ. وقد أشرتُ إلى هَذَا المَعْنَى الَّذي قال الشيخ، في تَائيتي الخَمْرِية. فَقُلْتُ:

سَـكِـرْنَـا بِـهَـا قِـدْمـاً وَبَـعْـدَ نَـشَـاءَتـي وَفِـي الـنَّـشْـأَةِ الأُخْـرَى تَـدُومُ مَـسَّـرَتِـي

ثم قال رضي اللَّهُ عَنْهُ:

عَـلَـيْـكَ بِـهَـا صِـرْفـاً وَإِنْ شِـئْـتَ مَـزْجَـهَـا فَـعَـدْلُـكَ عَـنْ ظُـلْـمِ الْـحَـبِـيـبِ هُـوَ الـظُّـلْـمُ

قلت: الصِّرْفُ بِكَسْرِ الصَّادِ: الخالِصُ مِنَ الخَمْرِ وغَيرها. قاله في القاموس: والمَزْجُ: الخَلْطُ. وَعَدَل عَنْ كَذَا: انصَرَفَ عَنْهُ. والظَّلْمُ، ضَبَطَها بفتح الظَّاءِ. وفسره بالريق. وقوله في القاموس. الظُّلْم بالضَّمّ: وَقْع الشيْء في غَيْر مَحَلِّهِ. والمصْدَر الحقيقي: الظَّلْم بالفَتْح، ظَلَم يظلم ظَلماً بالفَتْح فَهُوَ ظَالِمٌ ومظلوم. ثم قال: والظلم: الثلجُ بهذيل الثعلبي. وماء الأسنان هـ. فإن أراد بماءِ الأسْنانِ الرِّيق، وافَق ما قاله الْبَعْضُ. ويكون حينئذٍ كناية عن خَمْرِ المحبَّة. لكنَّها بعيدة لغربة الانتقال، مِنَ الرّيقِ إلى الخَمْرِ. والَّذي يظهر. أَنَّهُ الظلم المعلومُ، أطلقه على التَّصرُّفَات القهرية الجلالية. إذ لاَ سبيل لشُرْب خَمْر المحبَّة على الْوفاءِ والصَّفَاءِ، إلاَّ بعد مرور هذه التَّصرُّفات الإلَهية عليه. وإلاَّ كَانَ كَاذباً. لقول أبي المَوَاهِب: مَنِ ادَّعَى شهود الجَمَالِ، قَبْل تَأَدُّبِهِ بِالْجَلاَلِ، فارْفُضْهُ فَإنه دَجَّالٌ. فَهُوَ كَقَول الشَّاعِر:

الـحـبُّ دِيـنـي فَـلاَ أَبْـغِـي بِـهِ بَـدَلاَ والـحُـسْـنُ مَـلِـكٌ مُـطَـاعٌ جَـارَ أَمْ عَـدَلاَ
والـنَّـفْـسُ عُـزَّتْ وَلَـكِـنْ فِـيـكَ أَبْـذُلُـهَـا والـذُّلُّ مُـرٌّ ولـكِـنْ فـي رِضَـاكَ حَـلاَ
يَـا مَـنْ عَـذَابِـي عَـذْبٌ فِـي مَـحَـبَّـتِـهِ لا أَشْـتَـكِـي مِـنْـكَ لاَ صُـدّاً وَلاَ مَـلَـلاَ

يقول رضي اللَّهُ عنه: عليك أيّها الشَّارب للخَمرةِ الأزلية بِهَا صِرْفاً. أي صافية، خالصة من السلوكِ. بل أَسْتَغْرِقْ في تعاطِي أَسْباب شُرْبِهَا، حتى تغيب عن الحسِّ بالكلية. وإن شِئت. فامْزجْها بشيءٍ من السلوكِ. إعطاءً لحق العبودية؛ التي هي كَمَالٌ. فَإِنْ تَعرفَ إليكَ الحق بشيءٍ من التَّصرُّفَاتِ القهرية. التي هي سبب الشرْب شرْب هذه الخمرة الأزلية. فعدْلك عَنْها، وانصرافكَ عن نِيرَانها؛ هُوَ الظّلم الكَبِيرُ. الحق تعالى يقول لك: هاتِ نُسْقيكَ خَمْرَتِي بثمَنِ تَصَرُّفَاتِي. وأنت تَهْرب مِنْهُ. الحق تعالى يريدُ أَن يطوي عنك مسافَة البُعْدِ. وأَنْتَ تَفِرّ منْهُ إلى الْبُعْدِ. وفي الحِكَم: إِذَا فَتَحَ لَك وجْهَةً مِنَ التَّصَرّفِ، فَلاَ تبال مَعَها إنْ قَلَّ عَمَلُكَ. فَإِنَّهُ مَا فَتَحَهَا لَك؛ إلاَّ وهُوَ يُريد أَنْ يَتَعَرَّفَ إليْكَ فِيهَا هـ. وكَان شيْخ شيخنا رضي اللَّهُ عنهُ يَقُولُ: العجَبُ كل العَجَب مِنَ الفَقِير يقول: يَا رَبِّ عرِّفْنِي بِكَ. فَإِذَا تَعَرَّف الحق تَعَالى إِلَيْهِ فَرَّ مِنْهُ وأَنْكَرهُ. والحاصل: أَنَّ جَنَّة المعارف؛ التي هي محلّ شُرْب الخمرة الأزَلية. مَحْفُوفةٌ بالمَكَارهِ: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ﴾... الآية: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾[1] الآية، فإطلاقُ الشيخ رضيَ اللَّهُ عَنْهُ على هَذِهِ التَّصَرُّفَاتِ ظُلْماً مَجَازٌ. ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾. لكن ذَكَرَ الحبيبَ هُنَا ليَسْهُلَ هَذَا الإطلاق. إذْ كُلّ ما يصْدُر مِنَ الحبيبِ كُلّه حُلْو مُسْتَعْذَبٌ. وإنْ كَانَ ظَاهِره ظلماً. فبَاطِنُهُ صَوَابٌ وتقريب. واللَّهُ تعالى أَعْلَمُ. ثم قال رضِي اللَّهُ عَنْهُ:

فَـدُونَـكَـهَـا فـي الْـحَـانِ واسْـتَـجْـلِـهَـا بِـهِ عَـلَـى نَـغَـمِ الأَلْـحَـانِ فَـهْـيَ بِـهَـا غُـنْـمُ

قُلْتُ: دُونَكَ اسْمُ فِعْلٍ بِمَعْنَى خُذْ. واللَّحْنُ مِنَ الأَصْوَاتِ المصنُوعاتِ. المَوْضوعة على ميزَان الشِّعْرِ. والجمع أَلحان ولحون والْغُنْمُ بِالضَّمّ: الفَوْز بالشَّيْءِ بِلاَ مَشقَّةٍ. قَالَهُ في الْقَامُوس. يَقُول رضِي اللَّهُ عَنْهُ: إن أَردتَّ أَنْ تَظْفَرَ بِهَذِهِ الخَمْرَةِ، فَخُذْها مِنْ مَحَلِّها. واستجلِّها مِن خَانِهَا؛ وهو الاجْتماع مَعَ أَرْبَابِهَا. والصُّحْبة لَهُمْ. والأدب مَعَهُمْ وتعظيمهم، والمُذَاكَرَة فِيها مَعَهُمْ. وإنشاد الأشْعَار

(1) سورة العنكبوت: الآية: 2.

التي تَشْتَمِلُ على ذِكْرها. على نُغُم حَسَنَة. وألْحان مستحسنة؛ فهي السبَبُ في الْفَوزِ بحصولهَا. والظَّفر بالسُّكْرِ بِهَا. كَألحانِ الششتري والنّاظم وغيرهما من الخمرية أو البحرية. ولذلك اتخذت الصوفية مُنْشداً لينشد في حلقة الذّكر وبعدهَا؛ لأنَّهَا تُهَيّج الحبَّ. وتَستجلب السكر. ويُشترط أنْ يكُونَ صَيِّتاً عارفاً بصناعَةِ الإنْشادِ. يَذْكُرُ في كُلِّ محلٍّ ما يُنَاسِبُهُ، بِدَايةً ونهايَةً. جَذْباً وسُلوكاً. وباللَّهِ التوفيق. ثم قال رضي اللَّهُ عَنْهُ:

فَمَا سَكَنَتْ وَالْهَمُّ يَوْماً بِمَوْضِعٍ كَذَلِكَ لَمْ يَسْكُنْ مَعَ الْغَمِّ الْغَمُّ

يقول رضِي اللَّهُ عَنْهُ: هَذِهِ الْخَمْرَةِ الأزلية. مَنْ شَربها وسَكر بِهَا. وتمَكَّنَتْ مِنْ قَلْبِهِ مَعْرِفَتُهَا. وأشرقت على سِرِّهِ أنوارهَا. لاَ يَسْكُنُ مَعَهَا فِي قَلْبِهِ هَمٌّ أَبَداً؛ لأنَّ الْوُصُول إلى هَذِهِ الْخَمْرَةِ، هو الْوُصُول إلى الحبيب، والجلوس في بسَاطِ حَضْرَتِهِ. ومُشاهدة أنوار طلعَتِهِ. وَمَن كَانَ مَعَ الحَبِيبِ لاَ يَعْتَرِيهِ الهُمُومُ. وَلا يطرق ساحته الغُموم. كَما قال القائل:

هَنِيئاً لِمَنْ قَدْ نَالَ حُبَّ حَبِيبِهِ وَخَاضَ بِتَرْكِ الْغَيْرِ أَكْرَمَ مَوْرِدِ
نَعِيمٌ بِلاَ حَلٍّ لَدَيْهِ مُجَدَّدٌ عَلَى عَدَدِ الأَنْفَاسِ فِي كُلِّ مَشْهَدِ

وأيْضاً: لاَ تطرق الهموم والأحْزَان، إلاَّ من وُجُودِ الإنسَان. وأمَّا مَن تحقَّقَ زَوَالُهُ؛ كَانَ أَمْرَهُ كُلُّهُ بِاللَّهِ. ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ﴾. والحقُّ مُنَزَّهٌ عَنِ النَّقَائِصِ. وإن شئتَ قُلْتَ. الهَمُّ والْحُزن لاَ يتصوَّران إلاَّ فُقدَانَ شَيْءٍ أَوْ فَوَاتَهُ. وَماذَا فَقَدَ مَنْ وَجَدَ اللَّهَ. بَلْ مَنْ وَجَدَ اللَّهَ كَانَتْ أَوْقاته كلها مَوَاسِم وأَعْيَاداً. كما قال الشَّاعِرُ:

الدَّهْرُ لِي مَأْتَمٌ إِنْ غِبْتَ يَا أَمَلِي وَالْعِيدُ مَا كُنْتَ لِي مرءاً ومُسْتَمِعا

وقال آخَرُ:

قَالت: هنّ العيدَ بالبشْرَى فَقُلْت لها الْعيدُ والبُشْرَى عِنْدِي يَوْمَ لُقْيَاكَ
اللَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ النَّاسَ قَدْ فَرِحُوا بِهِ وَمَا فَرْحَتِي إلاَّ بِرُؤْيَاكَ

وإنْ شِئْتَ قُلْتَ: إنما كَانَتْ هذِه الخمرةُ لا يسْكُنُ مَعَهَا الْهَمُّ والْغَمُّ؛ لأن هذه الخمرة لا تَسْكُنُ إلاَّ فِي قَلْبٍ تَقِيٍّ. وقد قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ أَيْ يَجْعل له من كُلِّ هَمٍّ مَخْرجاً. وَلاَ تَسْكُنُ أيضاً. إلاَّ في قَلْبٍ مُحْسِن. وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾.

وَلاَ تَسْكُنُ أَيْضاً إلاَّ فِي قَلْب صَبُور. وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾، ومَن كَان اللَّهُ مَعَهُ مَاذَا يَفُوتُهُ؟

وإن شِئْتَ قُلْتَ: إنما تطرقُ الهموم والغموم، مَنْ عَدِمَ الثقة بِالحيّ القَيُّوم. وَأَمَّا مَنْ صَلحَ تَوَكّلُهُ على اللَّهِ. فَقَدْ كَفَاهُ اللَّهُ وَآوَاهُ. قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾. وَمَنْ كَانَ اللَّهُ كَافِيهِ، كَيْف تَعْتَرِيهِ الْهُمُومُ؟

إنْ شِئْتَ قُلْتَ: إنَّما تَطْرُقُ هَذِهِ الغمُوم. مَنْ عَدم التحقق بالقَضَاءِ المحتُوم. وأَمَّا مَنْ تحقق بِسَابِق القَضَاءِ والقَدَرِ. أَرَاحَ نَفْسَهُ مِنَ التَّعَبِ والكَدَرِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾ الآيـة. ثـم قـال: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾. حُكِيَ أَنَّ رَجُلاً فَاقَ حَالُهُ. وَتَعَطَّلَ أَجَلُهُ. فَخَرَجَ هائماً عَلَى وَجْهِهِ. وَدَخَلَ الصحراء، فَوَجَدَ قَصْراً دَارِساً مُتَخَرِباً. قَدْ كَشَف الريحُ عَنْهُ الرَّمْلَ. وفي حَائِط ذلِكَ القَصْرِ، لوْح من الرُّخَام. مكتوبٌ فيه بقلم الْقُدْرَة هَذَا الشِّعر:

لَـمَّـا رَأَيْـتُـكَ جَـالِـساً مُـسْـتَـقْـبِـلاً ... أَيْـقَـنْـتُ أَنَّـكَ لِـلْـهُـمُـومِ قَـرِيـنُ
مَـا لاَ يُـقَـدَّرُ لاَ يَـكُـونُ بِـحِـيـلَـةٍ ... أَبَـداً وَمَـا هُـوَ كَـائِـنٌ سَـيَـكُـونُ
سَـيَـكُـونُ مَـا هُـوَ كَـائِـنٌ فِـي وَقْـتِـهِ ... وَأَخُـو الْـجَـهَـالَـةِ مَـتْـعُـوبٌ مَـحْـزُونُ
يَـجْـرِي الْـحَـرِيـصُ وَلاَ يَـنَـالُ بِـحِـرْصِـهِ ... شَـيْـئـاً وَيَـضْـحَـى عَـاجِـزاً مُـهِـيـنُ
دَعِ الْـهُـمُـومَ وَتَـعَـرَّ مِـنْ أَثْـوَابِـهَـا ... إِنْ كَـانَ عِـنْـدَكَ بِـالْـقَـضَـاءِ يَـقِـيـنُ
هَـوِّنْ عَـلَـيْـكَ وَكُـنْ بِـرَبِّـكَ وَاثِـقـاً ... فَـأَخُـو الْـحَـقِـيـقَـةِ شَـأْنُـهُ الـتَّـهْـوِيـنُ
طَـرَحَ الأَذَى عَـنْ نَـفْـسِـهِ فِـي رِزْقِـهِ ... لَـمَّـا تَـيَـقَّـنَ أَنَّـهُ مَـضْـمُـونُ

وَإِنْ شِئْتَ قُلْتَ: الْهُمُومُ والْغُمُومُ ظُلُمَات. والخَمْرَة الأزَلية أَنْوَارٌ مُشْرِقَاتٌ. فَكَيْفَ تَجتَمِعَ الظُّلمَات والنُّورُ؟ أَمْ كَيف تجتمعُ الكَآبَة والسُّرُورِ؟ وتعبير الشيخ بالسُّكْنَى يَقْتَضِي أَنَّ خطو الهَمّ على الْقَلْبِ ومُروره عليه. لا ينافي وُجُود الخَمرة. وَهُوَ كَذَلِكَ. قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ فهذه الآية، تحكُمْ على أَهْل البِدَايَاتِ والنهاياتِ لِقوله تَعَالَى قَبْلَ ذَلِكَ مُخَاطِباً لِسَيِّد العارفينَ: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ الآية. أو إشارة إلى أَنَّ الطَّيْفَ لاَ يَخْلُو مِنْهُ أَحَدٌ. وإن كَانَ الرَّسول معصوماً مِن إصراره، لكن فيه تنبيهٌ لِغَيْرِهِ. واللَّهُ تعالى أَعْلَمُ. ثم قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

وَفِي سَكْرَةٍ مِنْهَا وَلَوْ عُمْرُ سَاعَةٍ تَرَى الدَّهْرَ عَبْداً طَائِعاً وَلَكَ الْحُكْمُ

يَقُولُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وفي سَكَرَةٍ مِنْ هَذِهِ الخَمرَةِ الأَزَلِيَةُ، وَلَوْ سَاعَة من الْعُمُرِ، ترى الزَّمَان طَائِعاً لكَ. والأشياء كُلّها عِنْدَ أَمْرِكَ ونَهْيكَ. وأَنْتَ حَاكِمٌ عَلَيْهَا. ما دُمْتَ فِي هَذِهِ السَّكْرَةَ. لأنكَ حُرّ عنْهَا، غنيّ بِشُهُودِ مُكَوِّنِهَا. الأشْيَاءُ كُلّما تشتاقُ إلَيْكَ وأنْتَ مَوْلاَهَا. أَنْتَ مَعَ الأكْوَان. مَا لَمْ تَشهد المُكوّن. فَإِذَا أَشهدتَّهُ، كَانَتِ الأكْوَان مَعَكَ. وفي الحديث. «اشْتَاقَتِ الجَنَّةُ إلى عَلِيٍّ وعَمَّارٍ. وصُهَيْبٍ وَبِلاَلٍ». وَبالْجُمْلَةِ. فَمَن عَلَتْ هِمَّتُهُ عَنِ الأشْيَاءِ كَانَ حُرّاً. والأشْيَاء كلها عَبِيد لَهُ. يَتَصَرَّف فِيها باللَّيل. مُرَاده مَعَ مُرَاد مَوْلاك. لا يشتهي إلاَّ ما يَقْضي، وَلاَ يُرِيدُ إلاَّ ما يُرِيدُ. صَارَ المَنْعُ عِنْدَهُ عَيْنَ العَطَاءِ. والذّلّ عَيْنَ الْعِزّ. والْفَقْرُ عَيْن الْغِنَا. والقبْضُ عَيْنَ البَسطِ. إلى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ تَوَارِدِ الأضدادِ. فَلاَ يَقْدَحُ فِي حَقّ العَارِفِ تَعَذر الأشياء عليه، في أمُور الدُّنيا؛ لأنه عِنْدَ مَوْلاَهُ. مَنَعَهُ أَوْ أَعْطَاهُ. وتقييدنا كَلاَم الشيخ. بوقتِ الخَمْرةِ لاَ بُدَّ مِنْهُ. وأَمَّا مَن رَجَعَ إِلَى نَفْسِهِ، وَشُهُودِ حِسّهِ. فَلاَ تبقى له هذه الْمَزِية. لغَلَبة أَحْكَام العُبُودية عَلَيْهِ. وفي ذَلِكَ يقُول الشَّاعِر:

نَحْنُ إِنْ كُنَّا بِهِ دَلاَلاَ تِهْنَا عَنْ سَائِرِ الأَحْرَار والْعَبِيدِ

وَإِنْ نَحْنُ رَجَعْنَا إِلَيْنَا عَطَّلَ ذُلّنَا ذُلَّ الْيَهُودِ

فَمَنْ دَامَ سُكْرُهُ فِي الْبَاطِنِ. وتحقق بَقَاؤهُ وَفَنَاؤهُ. وَسَكَنَ عِنْدَ مَوْلاَهُ، كَان حُرّاً عَلى الدَّوَام. مَالِكاً عَلَى الدَّوَام. والأشياء مملوكة له على الدَّوام. يَتَصَرَّف فِيهَا باللَّهِ. خليفة عَن الله في حُكْمِهِ وَإِلْزَامِهِ. مَعْزُول عن رؤية نَفْسِهِ وَوُجُودِهِ. يَتَظَهَّرُ بِعَيْن البَصِيرَة إلى سَابِقِ الْقَضَاءِ، فَيَحْكُمُ بِهِ. قَدْ ذَهَبَ رُؤْيَةُ الْكَوْنِ عَن نظَرِهِ. فَلاَ يشهد إلاَّ مُكَوّنَهَا. فلا شكَّ أَنَّ مَنْ كَانَ هَكَذَا. يكُون الدَّهر خَادماً لَهُ. والأَنَامُ عَبيداً. فَكُلّ يوم عِنْدَهُ الْعِيدُ. حَقَّقَنا اللَّهُ بِهَذَا الأَمْرِ الْعَظِيم. بجاه سَيِّدِ الخَلْقِ عليه السلام. ثُم قَالَ رَضِي اللَّهُ عَنْهُ:

فَلاَ عَيْشَ فِي الدُّنْيَا لمن عَاش صَاحِياً وَمَنْ لَمْ يَمُتْ سُكْراً بِهَا فَاتَهُ الْحَزْمُ

قُلْتُ: الصَّحْو: ذَهَابُ الْغَيْم، والسُّكْر. يقال: صَحِيَ السكران. كَرَضِي. وأَضْحَى: ذَهَبَ سُكْرُهُ. قَالَهُ في الْقَامُوسِ: يقول رضي اللَّهُ عَنْهُ: مَنْ فَاتَهُ السّكْر بِهَذِهِ الخَمْرَةِ، وعاش سَالِكاً مَحْضاً. لاَ يَرَى إلاَّ الأَكْوَان. وَلاَ يَحُول فِكْره إلاَّ فِيهَا.

فَعَيْشُهُ عَيْش الْبَهَائِم. فَلاَ عَيْشَ لَهُ عِنْدَ الأَكْيَاسِ؛ لأَنَّ عَيْشه مُكَدَّر. وَرزقه مِنَ العلوم مُقَتَّرٌ. مسجُون بمحيطاتِهِ، مَحْصُورٌ فِي هَيْكَلِ ذَاتِهِ. لَمْ يُفْتَحْ لَهُ مَيَادِينُ الْغُيُوبِ. وَلَمْ يَخْرجْ إلى فَضَاءِ الشُّهُودِ والعِيَان. قَدْ بَانَ غَبْنه، وَدَامَ حُزْنُهُ. وَقَدْ قُلْتُ في تَائيتي فِي هَذِهِ المَعْنَى:

فَيَا غَبْنَ مَنْ لَمْ يَشْفِ مِنْهَا غَلِيلَهُ ... لَقَدْ كَسَاكَ الْحِرْمَانُ ثَوْبَ مَذَلَّتِي

وَيَا فَوْزَ مَنْ أَضْحَى لَهَا مُتَضَلِّعاً ... عَلَى عَدَدِ الأَنْفَاسِ فِي كُلِّ وِجْهَةِ

هَنِيئاً لَهُ فَالأَمْرُ عِنْدَ مُرَادِهِ ... وَعَبْداً يَصِيرُ الدَّهْرُ فِي كُلِّ خِدْمَةِ

فَمَنْ عَاش وَلَمْ يَسْكرْ مِنْها حَتَّى مَات ... فَقَدْ فَاتَهُ الحَزْمُ وَكَانَ حَظَّهُ النَّدَمُ

كَمَا قَالَ الشاعِرُ:

مَنْ فَاتَهُ مِنْكَ وَصْلٌ حَظُّهُ النَّدَمُ ... وَمَنْ تَكُنْ هَمَّهُ تَسْمُو بِهِ الْهِمَمُ

وَاعْلَمْ أَنَّ الصَّحْوَ عَلَى قِسْمَيْنِ: صَحْوٌ بعد السُّكْر: وهَذَا عَيْن الكَمالِ. وصحو قبل السكر؛ وهذا هو المَذْمُوم، لأن صاحبه محجوب عن اللَّهِ؛ وهو الذي أرَاد الناظم هُنَا، كَمَا أنَّ السكر على قسمين: سكر يكُون مَعَه سلوك أَوْ بعدهُ. وهذا هو الكَمَال. وسكر لاَ يصحبه سلوك معه وَلاَ بعدهُ. وَهَذا نَاقِصٌ؛ لا يصْلحُ للتربية النبوية. كَما أنَّ السُّلوك المخض لا يصلح أَيْضاً للتَّربية. ومَن سَكَر ثم صَحَا كان شيخاً مُرَبِّياً، كَاملاً مكملاً؛ وهذا لا ينقطعُ، ما دَامَ الوجود قَائماً. وَلاَ يقُول بخلافِ هَذَا، إلاَّ مَنْ طَبَعَ اللَّهُ على قَلْبِهِ. نَسْأل اللَّهُ السَّلامَة بِمنِّهِ وكَرَمِهِ: ثُمَّ إنه قَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

عَلى نَفْسِهِ فَلْيَبْكِ مَنْ ضَاعَ عُمْرُهُ ... وَلَيْسَ لَهُ فِيهَا نَصِيبٌ وَلا سَهْمُ

يَقُولُ رضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: مَن ضَاع عُمْرُهُ في البطالة والتقصير. والتخليط والتكْدير. وليْسَ له مِن خَمْرَة الأفراحِ قليل وَلاَ كَبيرٌ. فَالواجبُ عليه أَنْ يبكي على نَفسِهِ آناء اللَّيْل وأطراف النَّهار. ويلتجيء إلى العارفين الأطهار والصحالين الأبْرَار فعَسى أَنْ تَهُبَّ عليه نَفَحات مِنَ الكَرِيم الْغَفَّار. لعلّ يلتحق بِهِم، وينخرط في سِلكهم. وإلاَّ بَقِيَ مغبوناً عَبادَتُهُ؛ وإن كَثُرتْ فِي الحسّ؛ فهي قليلة في الْمَعْنَى؛ لأنَّ المقصود مِنْ عَمَلِ الجوارحِ، وصُولُ ثمرتها إلى الْقَلْبِ؛ وهِي خَمْرة المحبَّة. فَمَنْ لَمْ يَصِلْ إلى هَذِهِ الخَمْرَةِ، فعبادته وسيلة بِلاَ غَايَةٍ. ولذلك قال القطب ابن مَشيش ـ نَفَعَنَا اللَّهُ بِذِكْرِهِ ـ مَنْ دَلَّكَ على الدّنيا فَقَدْ غَشَكَ. وَمَنْ دَلَّكَ عَلَى الْعَمَل

فَقدْ أَتْعبَكَ. وَمَنْ دَلَّكَ على اللَّهِ فَقَدْ نَصَحَكَ. فالدِّلالَةُ على اللَّهِ، هو تَغيّب الْعَبْد عَمَّا سواهُ، ونِسْيَانُهُ نَفْسه وَهَواهُ؛ وَهَذِهِ هِيَ الخمرةُ المَطلوبة. فعبادة أَهْل هذه الخمرة كثيرة في المَعْنَى. وَإِن كَانَتْ قَليلَة فِي الحسّ؛ لأنَّ عبادَة هذه الخمرة كُلّها مُضَاعفة بأضعاف كثيرة؛ لأنها بيْن فكْرَةٍ ونظرةٍ. وشهودٍ وعِبْرة. وفي الخَبر: «تَفَكُّرُ سَاعَةٍ أَفْضَلُ مِنْ عِبَادَةِ سَبْعِينَ سَنَة». وَقَال الشَّاعِر:

كُلُّ وَقْتٍ مِنْ حَبِيبِي ... قَدْره كَأَلْفِ حَجَّةِ

أي سنة. وقال الشيخ أَبُو العَبَّاس المرْسِي رَضِي اللَّهُ عَنْهُ: أَوْقَاتُنَا كُلها ليلة القدْر. أي كل وقتٍ عِنْدَنَا خَيْر مِن أَلْفِ شَهْرٍ. يسيرُ إلى هَذَا المَعْنى. وقال الجنيد رضي اللَّهُ عَنْهُ: أشرف المجالس وأعلاها الجلوس مع الفكرة في ميدان التوحيد، بِنَسِيمِ المعرفة. والشُربُ بكأس المحبَّة، مِنْ بَحْر الوِداد، والنظر بحسْن الظَّنْ باللَّهِ تعالى. ثم قال: يَا لَهَا مِن مجالس. مَا أَجَلَّها! وَمِن شَرابٍ ما أَلَذَّهُ! طوبَى لِمَن رَزَقَهُ هـ. وقال ابن عطية رحمهُ اللَّهُ: حدَّثني أبي رضِي اللَّهُ عَنْهُ: عن بَعْض علماءِ المشرقِ، قال: كنت تائهاً في مسجد الاقْدَام بمِصر. فصلَّيْت العَتَمة. فَرَأيت رَجُلاً قَدِ اضْطَجَعَ فِي كِسَاءٍ لَهُ. مَسجياً بكسَائِهِ حَتَّى أَصْلَحَ. وصَلَّينَا في الليلة وسهرنَا. فَلَمَّا أُقيمت صَلاةَ الصُّبْح. قام ذَلِكَ الرَّجُل، فاسْتَقْبَلَ القِبْلَةَ. وصَلَّى مَعَ النَّاس، فاسْتَعْظَمْتُ جُرْأَتَهُ في الصَّلاةِ بِغَيْر وُضُوءٍ. فلمَّا فَرغت الصلاة، خرج فَتَبَعَتْهُ لأعِظَهُ. فَلَمَّا تبعته سَمِعْتُهُ يُنْشِدُ:

مُنْسَجِنُ الْجِسْمِ غَائِبٌ حَاضِرْ ... مُتَنَبِّهُ الْقَلْبِ صَامِتٌ ذاكِرْ
مُنْقَبِضٌ فِي الْغُيُوبِ مُنْبَسِط ... كَذَاكَ مَنْ كَانَ عَارِفاً نَكِرْ

قال: فعلِمتُ أَنَّهُ مَنْ يَعْبدُ اللَّهَ بِالفِكْرَةِ. وقال أَبُو الحجاج الضرير في مَنظوميتِهِ:

والفِكْرُ فِي عَجَائِبِ الخَلِيقَةْ ... مِنْ أَفْضَلِ الطَّاعَاتِ فِي الحقِيقَةْ
لأنَّهُ بِهِ تَكُونُ الْمَعْرِفَةْ ... وإنَّمَا يَخَافُهُ مَنْ عَرَفَةْ

وقال الششتري رضي اللَّهُ عَنْهُ:

دَعِ السَّيْفَ والسُّبحة والسَّجّادْ ... واعقد سُكيرةً مِنْ خَمْرَةِ الإفرادْ

أي اترك الجهاد الحِسّي والعبادة الحسية. واشْتَغِلْ بالعبَادَةِ الباطنية القلبية. ولذلك قال بَعض العارفينَ: الذَّرَّةُ مِنْ أَعْمَال القُلُوبِ. أفضل مِن أَمْثال الجِبَالِ مِنْ

أَعْمَالِ الجَوَارِحِ. وقال الإمام أبُو القاسم القشيْري رضي اللَّهُ عَنْهُ: التفكر نعْت كل طالبٍ، وثمرة الوصول، بِشرطِ الْعِلْم. فَإِذَا سَلِم الفكر عَن الشوائب. وَرد صاحبه على مَنَاهِل التحقيق. وفي كتاب اللَّهِ عَزَّ وجلَّ، وسنَّة رسول الله ﷺ، مِنَ الحث على التفكّر، والاغتباط به. ما يَقلّ بِهِ أَسْفار. وكذلك أخبار السّلف الصالح. قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾. وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾. وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ﴾، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾. إلى غَيْر ذلِكَ ممَّا لاَ يُحْصَى. ولمَّا نَزلت على رسولِ اللَّهِ ﷺ، هذه الآية: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ الخ الآية، قال: «**وَيْلٌ لِمَنْ قَرَأَهَا وَلَمْ يَتَفَكَّرْ فِيهَا**». وقال ﷺ: «**لاَ عِبَادَةَ كَالتَّفَكُّرِ**». وسُئِلَتْ زوجة أبي ذَرٍّ عن عبادة زَوْجِهَا. فَقَالَتْ: كَانَ نَهَارُهُ أجمع في ناحية يتفكَّرُ. وكذلك ذكرتْ زَوْجة أبي بَكْر. قَالَتْ: كَانَ لَيْلُهُ في ناحيَة يَتفكَّرُ. وَكَانَ عِيسَى عليه السلام يقولُ: طوبَى لِمَن قيله ذكراً. وصمته تفكراً ونظرهُ عِبْرة. إنَّ أكْيَسَ النَّاس مَن دَانَ نَفْسَهُ؛ وعمل لِمَا بَعْد المَوْت. وقال كَعْبٌ: مَنْ أَرَادَ شَرَفَ الآخِرَةَ، فليكثر التَّفَكّر. وقيل لإبراهيم: إنك تُطيل الفِكرة. فقال: الفِكرة مُخ الْعَقْل.

وَكَانَ سُفْيَانُ بْن عُيَيْنَة، كَثِيراً، مَا يَتَأَمَّلُ وَيَقُول: إذا المَرْء كَانَتْ لَهُ فِكْرَة. فَفِي كُلّ شَيْءٍ لَهُ عِبْرَة. وقال الحسَن: مَنْ لَمْ يكُن كَلاَمه حكمَة، فَهُو لَغْوٌ. وَمَنْ لَمْ يَكُنْ سكوته تفكّراً؛ فَهُو سَهْوٌ. وَمَنْ لَمْ يَكُن نظرُهُ اعْتباراً، فهُوَ لَهْوٌ. وقيل في قوله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَـٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي أَمْنعَ قلوبَهُمُ التفكير فِي أَمْرِي.

وَكَانَ لُقْمَانُ يُطيلُ الجُلوسَ وحْدهُ. فيمرّ بِهِ مَوْلاَهُ. يا لقمان. إنك تطيل الجُلُوس وحدك. فَلَوْ جلسْتَ مَعَ النَّاسِ، كان أَأْنسَ لَكَ. فيقول لقمان: إن أطول الوحدة أَتَمُّ لِلفكرةِ.

وقال في الحِكم: ما نفع القَلْب شيْءٌ مثل عُزْلة، يَدْخل بِهَا ميْدان فِكْرة. وقال أيْضاً: الفِكْرة سِراج الْقَلْب. فإذا ذَهَبَتْ فَلاَ إضاءَةَ لَهُ. وقال أَيْضاً: الفِكرة فكرتان: فكرة تَصدِيقٍ وإيمَانٍ. وفِكرة شُهُودٍ وعِيَانٍ. فالأَوَّل لأرْبَابِ الاعْتِبار. والثاني لأرْباب الشهود، والاسْتِبْصَارِ. وفكرة أهْل الشهودِ والعِيانِ؛ هي التي تَسْتَلْزِم الخَمْرة؛ وهي المقصودة عنْدَ العَارِفين. وهي التي تعَادِل أَلْف سَنَة. وقت

منهَا خَيْر من ألف شَهْرٍ. فَمَنْ فَقَدَها فَلاَ عَيْش لهُ في الدُّنيا. وحق على نَفسه البُكَاء. وَمَنْ ظَفَرَ بِهَا وَنَالَهَا يحق لهُ الْهَنَاءُ. وفي أَمْثالِهِ قال القائل:

هُـمُ الـرّجـالُ وغَـيْـن لِـمَـنْ أَنْ يُـقَـالَ لَـمْ يَتَّصِفْ بِمَعَانِي فِي وَصْفِهِمْ رَجُلُ

حَقَّقَنا اللَّهُ بِمَا حقَّقَهُمْ بِهِ. وأَتْحَفَنَا بِمَا أَتْحَفَهُمْ بِهِ. آمينَ. وسلام على المُرْسلينَ. والحمد لله رب الْعَالَمِينَ.

هَذَا آخر ما قَصَدنَا جَمْعَهُ على القصيدة الخمرية الفرضية: على يد عبْد ربه، أَقَل عبيده، أحمد بن محمد بنعجِيبة الحسَنِي.